حنظلة

رقم الإيداع لدى
دائرة المكتبة الوطنية
2021/3/148

813.03
النعيمي، بديعة حسن
حنظلة – بديعة حسن النعيمي – عمان: دار فضاءات، 2021
الواصفات: /الروايات العربية//الادب العربي//العصر الحديث/

* أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية.
* يتحمل المؤلف المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو اي جهة حكومية أخرى.

ISBN: 978-9923-36-135-1

فضاءات
للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى: 2021

جميع الحقوق محفوظة بموجب اتفاق

حنظلة – بديعة حسن النعيمي – الأردن
دار فضاءات للنشر والتوزيع – المركز الرئيسي
عمان - شارع الملك حسين- مقابل سينما زهران
تلفاكس: 4650885 (6 - 962+) هاتف جوال: 911431- 777(962+)
ص.ب 20586 عمان 11118 الأردن
E.mail: Dar_fadaat@yahoo.com
Website:http://www.fadaat4publishing.net/

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من الناشر

تصميم الغلاف: فضاءات للنشر والتوزيع
الصف الضوئي والإخراج الداخلي والطباعة: فضاءات للنشر والتوزيع

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لاتعبر بالضرورة عن رأي دار فضاءات للنشر والتوزيع.

بريعة النعيمي

حنظلة

رواية

فضاءات
للنشر والتوزيع

الإهداء

إلى أولئك الذين يصنعون ثيابا دافئة لغيرهم

وهم يرتجفون في ثياب بالية..

إلى الذين يرسمون على القيود أجنحة للحرية...

إلى جميع الذين يقبعون داخل تلك العلب الإسمنتية

ويصنعون المجد لثورة تتفتح في الخارج. . .

ألف سلام

بديعة النعيمي

القسم الأول

(1)

تحللتْ الأرض من سوادها فانزلقتْ قلادة الأحلام من عنق الليل، عندها أدركَ بأن للأحلام حرمات قد تُنتَهك، فالوقت عادة لا يعترفُ بأحلامنا، ننقادُ له، يُضيّعنا ويضيعُ بدوره منسرباً من بين أصابعنا كذرات تهربُ مسرعة من عنق ساعة رملية في عماء أيامنا، يغمرنا كالسيل الهادر يقتلعُ منا الضعيف من الشعور ويعجزه القويّ، يمضي من غير اكتراث، لئيم، قوي، ضعيفون أمام طغيانه وبهرجته وألوانه البراقة.

سار هائماً على وجهه لا يعلم وجهته في مدينة لا تنام، شوارعها لا تزال تعجُّ بالناس، برائحة الويسكي المنبعثة من أنفاس المارة، بأولئك المتوارين في زوايا لا ذنب لها بما يدبرون، بمومساتٍ يعرضن أجسادهن بالشورتات القصيرة الملتصقة بلحوم سوداء وأخرى بيضاء تفوح منها رائحة الرغبة على الأرصفة الباهتة وبعض الزبائن يساومون على البضاعة الرخيصة، تذكرَ مدينته التي بِيعتْ عذريتها على أرصفة تختلف عن هذه، فالأرصفة لا تتشابه، كما المدن تمامًا. بالرغم من كلّ تلك الفوضى إلّا أن شعوراً بالوحدة انتابه وكأنّ العالم قد أقفرَ من حوله إلا من غضبه، حنقه، من رغبته في الطيران نحو أبيه ليمسكه من كتفيه ويهزه بقوة... لِمَ أجبرتني على السفر؟ لمَ جعلتَ مني لاجئاً في مدينة عاهرة؟ لِمَ دفعتَ بي إلى هذه الطاولة، كيف أقامر ولم تعلمني قوانين الورق؟

سأله يومها، لِمَ هي دون غيرها؟

أمسك به وهزّه صارخاً في وجهه للمرة الأولى في حياته.. لا أريد خسارة جديدة...

اختطفتْ قلبه حينما لمحها للمرة الأولى، هي مقدسية المنبت على جبل الزيتون والمكبر عقدتْ لهفتها، وهو بقلبٍ بحريّ، ولِد بين أمواجٍ هادرة لمدينة الحضارات والموانئ والبرتقال، جاء يومًا لزيارة أخواله في حارة الشرف إحدى حارات القدس القديمة، وكانت حينها معبرًا لآلاف المقدسيين والوافدين إلى المدينة القديمة، كانتْ تلعب مع الأطفال هناك ولم تكن قد تجاوزتْ العشرة أعوام، اختطفتْ قلبه، انتظرها وكانت الحرب قد وضعت أوزارها وضاعت فلسطين في ستة أيام وتاهتْ الآمال إلا أمله بالاجتماع بها، عاد باحثاً عنها، لكنّ الرحال هناك كانت قد تبعثرتْ فهي في الحرب لا تنتظر، بحث عنها في المخيمات، وجدها، تزوجها وسط أزيز الرصاص وهدير الطائرات على الجانب الشرقي لنهر الأردن، اصطحبها على أجنحة الحبّ حيث مدينة الموانئ.... إنها الأقدار ترتبُ المواعيد واللقاءات..

لجمته تلك العبارة {لا أريد خسارة جديدة} وامتصتْ غضبه بل وأشعرته بالأسى نحو أبيه. لملم أغراضه في حقيبة وذهب إلى سريره متظاهراً بالنوم باكراً.

صباح الخير بابا.

صباح الخير، هل أنت مستعد؟

نعم بابا، وبلع بصعوبة بضع لقيمات، لم يصدق بأنه آخر فطور له مع أبيه. سلمه صندوقاً خشبياً ودس مفتاح قفله الصغير في جيب بنطاله..

إنه أمانة من أمك، تفتحه يوم تحصل على شهادتك الجامعية، ضمّه إليه بقوة وتدارك دموعًا كادتْ أن تفضح ضعفه، دفعه بحنان أب.. اذهب بحفظ الله، احصل على الشهادة وعُد بسرعة..

أمانة من أمك، أبكتني هذه العبارة... كنتُ أغبِط الأولاد حينما ألتقيهم في ساحة المدرسة وقد ودّعتهم أمهاتهم ودسّتْ في حقائبهم الحبّ والقبلات والدعوات بعد أن نَثرنَها داخل عرائس الزيت والزعتر، أُخرِج عروستي أفتحها باحثاً عن قبلة ضائعة، حبّ مهترئ، دعوة لم تجرِ بعد على فم أمي تفوح منها رائحة الفقد، تزكّم أنفي، أُلقي بها إلى أقرب قطّ يتسكعُ على سور المدرسة، يقتربُ منها يقلّبها يحاول أن يجدَ بها رائحة المحبة، يقوم الملعون بركلها ثم يمضي هازئاً بي، لا أحد يحب الأشياء دون رائحة الأمهات. كبرتُ في بيت عمتي فغالباً ما كان أبي يُعتَقلُ لأشهر. كبرتُ مع بقايا من أحلام تكرُّ خيولها نحو أنقاض طفولة لمسافة فقدتْ ظلّها حينما تعامدتْ مع الحنين، ودمعة علقتْ في طرف العين أقسمتْ أن تجفّ في مكانها بعد أن أعلنتْ موسم المحلّ...

بكيا كطفلين، الأوّل في السيارة التي أقلته خارج الحدود، حدود طفولته، بيته، ذكرياته، الميناء، السفن، محطة القطار، شجرة البرتقال التي نسي أن يودع أوراقها قبل أن تودع الكون، والثاني في غرفة نومه وتحديداً على سريريهما الذي لم يلمسه جسد امرأة غيرها..

سار في جادّةٍ شبه مظلمة بالكاد تسربتْ إليها أضواء من أعمدة الشوارع البعيدة في مدينة الأبنية الشاهقة، كانت كلمات السمينِ تنخرُ في رأسه والمدينة لا تزال تتمددُ على سرير آخر الليل منكوشة الشعر تلفظُ آخر

نوبات الحبّ وشهقات اللذة، تفوح منها روائح مخادعة تظنُّ للوهلة الأولى بأنها طاهرة نقية وما هي في الحقيقة إلا عاهرة شهوانية...

أنا أعترفُ بأن الحضارة في جميع مجالاتها انطلقتْ من مشرقكم لكنكم لم تحافظوا عليها ولم تقوموا باستغلالها بالشكل الذي يدفع بكم لتطوروا من أنفسكم، بل إنكم علبتموها وقذفتم بها إلى أرفف الإهمال وانشغلتم بالاقتتال على السلطة والجاه والمال، صمتَ قليلاً، حدّقَ به باحتقار ثم تابع.. أتعلمُ يا صديقي! لقد احتضنها أجدادي بعد أن ضعفتم بين الأمم فكانت الحملات الصليبية ومن ثم الاستعمار الذي قام باقتسام الكعكة فكانت حصتهم جاهزة، وكما خططوا لها منذ قرون، والحقُّ يُقال بأنّ هذا حقهم الذي سُلِبَ منهم. زادتْ نبرة صوته حدّة.. وها أنت بفضل أموالهم تقطنُ شقة مكيفة وفي عمارة محترمة وحيّ راقٍ، وأكادُ أجزم بأن أباك كمبرادوراً أو أنه أقدم على بيع أرضه لأحدهم، وإلاّ لما تمكن من ابتعاثك إلى هذه المدينة.

انتفختْ أوداجه واحمرَّ وجهه، ثم جحظتْ عيناه وانقضَّ عليه، قال صارخاً، أبي ليس خائناً، لم يسوِّق يوماً لبضائع إسرائيل الرأسمالية ولم يبعْ شبرا من أرض أجدادي لهم.

احمرَّ وجه السمين بعد أن انقضّ عليه وكاد أن يخنقه لولا وجود الأسود.

حشرج وسعل بقوة. لم يبالِ بما فعل به بل إنه واصل بخَّ سمّه.. لِمَ لا تنظر إلى أبناء شعبك وقد تركوا فلاحة الأرض وذهبوا ليتمرغوا بأموالهم هناك في المصانع يعتاشون على حفنة ليراتهم.

إنك مرواغ كالماء أيها الوغد.

حدق به كأنه حشرة.. وأنت كمن يحفر على هذا الماء..

أخبرني، هيا، قالها وهو يلتقط أنفاسه من الغضب.. لمَ تدّعي المثالية؟؟ ولمَ هذا الدفاع المستميت عنهم؟ وهلا أخبرتني أيضًا ما مصدر الملايين الضخمة التي تمتلكها عائلتك؟ هل لك بأن تشرح لي كيف حصلتم عليها وجدك لم يكن سوى حلاقٍ في ألمانيا في زاوية من زوايا أحيائها المنبوذة!!! تسربلتْ الكلمات من فمه كطلقات رشّاش سريع...

صمتَ فجأة وكأنّ أحدهم دسّ لسانه في مؤخرته، شعر بالخسارة المؤقتة فسقط على ظهره كخنفساء، استعاد نفسه بعد لحظات. عاد ليغير مجرى الحوار بكل دهاء وقال.. إنهم شعب يستحقّ الحياة، قاوموا الظلم، التشرد، الطرد، ألم يقتل هتلر ستة ملايين منهم؟

قهقه ساخراً.. أتقول ستة ملايين!!

وهل تشكك في هذا الرقم؟ قالها بخبث وقطع الحديث بسرعة مغيراً مجرى الحوار للمرة الثانية!!

إني أنصحك بألاّ تتشدقَ كثيرا يا صاحبي، ألا ترى بأنكم تنعمون بفضلهم بحياة أفضل من كومة التراب والصخور تلك التي تدعون بأنها وطن!! قالها وكانت نبرة صوته لا تخلو من شيءٍ من الغطرسة واللامبالاة...

جحظتْ عيناه.. وهل غدا الوطن كومة تراب وصخور؟ إنك مخطئٌ، ولن تدرك يومًا بأن الوطن هو الحبل السري الذي يصلنا بالحياة، ومن دونه نختنق.. قالها بعد أن عدل جلسته وحاول أن يكون أكثر هدوءًا..

بحلق السمين به وكانت نظرته لا تخلو من الاحتقار، ثم سأل وابتسامة لزجة فاحشة تندلقُ من شدقيه كسم زعاف..

إذن هل لك بأن تخبرني لِمَ غادرتَ وطنك ولم تلتزم البقاء به للدفاع عنه؟ الوطن المنهوب الذي تتبجحُ بالكلام عنه يا حبيبي يحتاج إلى طلقة، إلى فعل أكثر مما هو بحاجة إلى كلمات جوفاء، تطلقها من بين أسنانك. ثم أخبرني ما الذي استفاده الوطن منك وأنت هنا؟ أأقول لك شيئا؟ احزم حقيبتك وعد غدا إلى وطنك واصنع تلك التي تسمونها (مقليعة) هههههه أفضل من وقفتك الآن أمامي، واعلم بأن جميع ما ذكرتُه الآن حقائق غير أنّكم تحرمون بعضها على آذانكم!!

ختم الصمتُ على شفتيه وشعر بأنه فتح ثقبًا في جدار الحقيقة، طأطأ رأسه، ضغطه بكلتا كفيه، باعد بين ركبتيه وحدّق بأرضية السجادة، رأى في ألوانها وزخرفاتها سقطات العرب جميعها، نعم لقد صدق، لِمَ أنا هنا؟ ولماذا لم أختنق ولا زلت أتنفسُ وأنا خارج الوطن؟ أسرّها في نفسه، تململ قليلاً، أمسك سيجارة، أشعلها، أخذ نفساً عميقاً ثم نفث دخانها بعصبية، ألقى بها ورهصها بمقدمة حذائه كما يرهص صرصورًا حقيراً.. وأصرّ على مواصلة استفزاز ذلك السمين الذي يشبه البغل..

لقد سرقوا ما هو لنا.. وواصل رهص عقب السيجارة التي عرضها عليه السمين في بداية الحوار من نوع مالبورو..

بعض السرقات مُبرّرة يا حبيبي!!.. قالها بسخرية.

ابتلع الجواب، تمنى لو أنّ الأرض تلِد زلزالاً بينهما حتى يتخلص من اتهاماته التي كان يكيلها له مستغلاً المواطنة التي يحملها على أوراقه الرسمية ولا يعترف بها إلا ظاهرياً.. لعنه في داخله، شتمه.. أيّها الخنزير يا صاحب القومية الازدواجية تفوو عليك.. اضطرّ أن يضع في فمه صرماية ويسكتْ لأنّ الأرض ليست أرضه، وكادتْ تنفلتُ منه ضحكة عالية عندما تذكر

(بأن الأرض هناك أيضًا لم تعد أرضه!!) تذكر بأنه بلا أرض بلا وطن وأنه مجرد لاجئ أينما ذهب، كان الزمن تلك اللحظة بالنسبة له كفيضان مدمر... ابتلع ريقه المخلوط بشظايا كلمات تكسرتْ في فمه منعته من الكلام، فقد بدأ ينزف من الداخل، ارتسمتْ ابتسامة ساخرة على فمه واستدار تاركاً المكان، صفق باب الشقة خلفه وخرج هائماً على وجهه....

سامحك الله يا أبي، لمَ أجبرتني على رحلة الاغتراب، ألم أخبرك بأنها ستكون زلقة جدا؟ خطيرة وقد تفْقدني بها، جعلتني أسافر كهارب من الموت لأستقرّ في مستنقعات القذارة مثل زهرة لوتس تورطتْ بالوحل...

سار مسافات طويلة، دخل جادات كثيرة غير أنه وفي هذه الجادة بالذات استطاع سماع وقع أقدامه وأقدام شبح صامت لرجل مر مسرعاً من جانبه وتجاوزه، لم يُعر له انتباهاً، بل ان كلّ ما أثار انتباهه هو أنه دخل مكاناً بعيداً عن تلك الشوارع التي لا تزال مستيقظة، تتآمر على النوم بحبة أفيون وتمارس الحب في شقق قذرة، وفجأة... اندفعتْ منه نظرة جريئة نحوها كانتْ كالعناق، كالشوق، كالتقاء الأبيض بالأسود عند نقطة الفجر، كنشوة السيجارة الأولى ودهشتها لمراهق. كانت أتون الغضب تشتعل بداخله، خفتْ وطأتها عندما وقعتْ عيناه عليها، أزهر الحلم المسافر وعاد ليتفتح في قلبه، اقتربَ منها أكثر، الوحل يغطي ساقيها وفخذيها البضين بعد انحسار التنورة الحمراء عنهما كانحسار الأمواج عن شاطئين من زجاج، إنه لا يشبه الشعور الذي انتابه يوم وقعتْ عيناه على الشقراء التي هاجمته وقتها بجسدها الذي يتفجر أنوثة، بعينيها الرماديتين المتمردتين بشعرها الأشقر الذي أبهره كما أيّ شرقي، بأنفها الأرستقراطي الذي بدا كأنّه هارب من قصر الباستيل، بغنجها ودلالها، سار خلفها كالمجنون،

أحبها، سحرته، أجل فإن للنساء سحرًا أسودَ، فكم من دولة سقطتْ على أسرّة النساء!! نسجتْ خيوطها حوله كأرملة سوداء، وقع طواعية في مصيدتها، امتصّته على فترات دون أن تعطيه فرصة الحركة، وحالما اكتفتْ منه، تركته كذبابة جافة حقيرة، كان حباً بلا جذور كتاريخها تمامًا، لذلك كان شعوره مختلفاً حين وقعتْ عيناه على هذه في تلك الجادة، فقد بدا شعوراً خجولاً كورقة اعتلتْ حبات الندى جبينها وقت الفجر. انتشلها من تلك الحفرة الموحلة ونفض عن جسدها عشرات الحشرات التي التصقتْ به بعد أن باغتها مطر تلك الليلة، حملها بين ذراعيه، تشبثتْ به، ضمّها إليه.

ريح تلك الليلة نزقة كانت تعوي كذئبة جائعة، كأن الجنون سكنها، سار بها، لا زالت بقايا من الظلمة تتمسكُ بهذا المكان، شعر بأنه ضلَّ طريقه.. لعنك الله يا سمين، أنت من دفعني إلى تلك الجادة الموحلة. يا لها من ليلة تعسة أيها الأسود. لِمَ دعوتَ هذا الملعون الذي قلب سهرتنا إلى نحس حتى انطبق علي المثل القائل..(اللي مالوش حظ لا يتعب ولا يشقى، تفووو عليك يا بن الخنزيرة)..

ظلتْ كلمات السمين التي سقطتْ كصفعة قوية على وجهه تدور وتطنُّ كذبابة خرقاء، غبية، كلما حاول هشها عادت لتلتصق بأذنيه.

يا لهذه المدينة إنها مجرّد غانية على سفينة تهزُّ ردفيها كلما طوحتْ بها الأمواج الشبقة. عندما دخلها للمرة الأولى أنكر كلاهما الآخر. شعر وقتها بأنه دخل في تيهٍ طويل من عدم الانتماء.. لكنّه اكتشفَ بعد زمن بأنها تشبه الكلب الذي لا يملك ذاكرة، لكنّه يمتلك القدرة على تخزين الروائح في شريط يمكن استرجاعه عند الحاجة..

أخرج سيجارة، حاول ألّا يزعجها. أشعلها بصعوبة، لجأ إلى أحد أعمدة الإنارة. سحب نفساً فانتعش قليلاً، سحب ثانيًا وثالثًا، حتى أتى عليها، ثم ألقى بما تبقى منها على الأرض. تلقفها سيل صغير، صنعته مياه الأمطار. عندها فقط، فكّر إن هو تتبع السيل، فلا بدّ بأنْ يوصله إلى النهر الشرقي، الذي تطلّ شقته عليه..

السيول مواليد المطر، تتوه في الشوارع، تبحث عن أمّ رحيمة، توفر لها الحماية من شمس ستطلع ولو طال سجنها، لتنقضّ عليها حتى تأتي على آخر قطرة بها. وليس هناك أفضل من الأنهار أمهات لها...

خاطبها وهي لا تزال نائمة بين ذراعيه كطفل أرهقه اللعب.. ها قد اقتربنا يا عزيزتي ولا يفصلنا عن البوابة الرئيسية للعمارة غير مسافة قصيرة. انتبه إلى ملامحها التي انكشفتْ بفضل أضواء أعمدة الإنارة، عينان بائستان، بشرة سمراء لامعة، شعر فاحم، شفتان ممتلئتان، جسد متناسق، أطراف متجمدة، نهدان نفرا من الصدر ونضجا للتّو بين يديه. فرضتْ حبها عليه من النظرة الأولى.. وقعتْ من عينيه نظرة على النهر، فانتابه إحساس بأن ظلام الكون التهمه دفعة واحدة. تذكّر قلب السمين المظلم وأن الظلام حينما يسقط عن النهر عند الفجر، ستظهر زرقته للكون. بينما قلبُ السمين سيبقى مظلمًا ولو سقط عليه ألف فجر، ضمّها إليه بقوه وسار نحو مدخل العمارة.

أخذ يترنّحُ وهو يعتلي درجات السلم بجسده الثقيل. كانت خطواته بطيئة كنملة ضلّتْ طريقها وهدها التعب. ضم صيده الثمين إليه وجاهد نفسه. كان التعب قد وصل به حداً كبيراً حتى كاد يغمى عليه. شعر بأنه دخل في مرحلة اللاوعي للمرة الثانية. قال في نفسه.. وشقتي كيف سأتعرف

إليها من بين أربع شقق متقابلة؟؟ خصوصا بأن حظّي لن يقف إلى جانبي وأنا دائم النزاع معه!! فكّر قليلاً.. نعم إنها الأبواب التي لم تخنّي يوماً، إنّها كالصاحب الأمين، لا بدّ بأن ستعرفني من رائحتي.

(2)

استطاع رؤيتها عبر مرآة الخزانة المواربة، كانتْ تجلسُ وقد نفضتْ النوم عن عينيها، تنتظرُ أن يحملها. فقد كانت قدمها مكسورة بسبب سقوطها في تلك الحفرة القذرة. تخيّل أن تطوقه بذراعيها، تراقصه، يجلسها أمامه على مائدة الطعام، يحدثها، يحدق بعينيها، يقطع الملل عنها. تذكّر يوم وجدها هناك في تلك الحفرة وكلمات ذلك السمين تدقّ في رأسه كمسمار في جدار مهترئ. أحبها، حملها أدخلها الحمام وفي البانيو مدّدها، غمرها بالشامبو. لم يتحرش بها، غسل جسدها، مشط شعرها، اشترى لها ثيابا جديدة، وضع لها المكياج بنفسه. كانت تستمع له بكل حبّ، لم تقاطعه يومًا، لم يسألها عن ماضيها فهو لا يهتم له، فكل ما يهمه أنها معه الآن، لا تنام إلّا عندما يسمح لها، لا تخرج إلّا إذا اصطحبها، لا تتواعد مع غيره، لا تخونه، ماذا يريد الرجل من أنثاه أكثر من هذا!!! فجأة قطعتْ أفكاره ضوضاء مجنونة في الخارج يعرفها جيدا، رَنّ جرس الشقة، وعلى عجل أخذ يُزيح قطع الملابس التي انتثرتْ بشكل عشوائي على طقم الأريكة في الصالة وأكواب قهوة وصحون علقتْ بها بقايا طعام الأيام الماضية. إنه حصاد أسبوع من الفوضى. حاول أن يجعل مظهر الصالة مقبولاً لدى ذلك الزائر المتطفل. حملها وأجلسها على الأريكة البعيدة، همس لها بأن لا تصدر أية ضجة. ربما لأنه لم يشأ أن يلمحها زائر هارلم السوداء. فَتحَ الباب. دخل كعادته وهو يؤدي رقصة الهيب هوب على موسيقى خاصة تنفجر من مسجلة صغيرة أمسكها بإحدى يديه، وفي الثانية أمسك صندوق بيتزا وزجاجة مشروب

من النوع الرخيص. ناولها له وهو ما زال يؤدي الرقصة ويقفز كالقرد بجسده النحيل.

كفى يا رجل فأنا لست بمزاج جيد...

هارلم.. قال له ذات مرة بأنها أفريقيا الفقيرة، فيها تاريخ من العنف فقد يُقتَلُ المرء فيها لسبب تافه، ظاهريًّا هي صاخبة، براقة. لكن حقيقتها تختلف. فما هي إلا صورة كبيرة، وحيدة، محرومة من الألوان كأنتيكة في مزاد علني. في هارلم عاش السود الذين تاقوا للحرية.

أتعلم يا حنظلة! أخبره يوما وهو يحرك أصابعه الطويلة!! لقد كانت هارلم في زمن ما تشهد أعظم موجات الفوضى.. مرض، فقر، جهل، إذا أردت الثياب الرخيصة تجدها هناك، أسواق مؤقتة على الأرصفة، مافيات الجريمة... و و و..... مع نهاية الربع الأول من القرن العشرين كان سكانها جميعهم من السود، ظهرتْ فيها الثقافة التي سُميتْ بالثقافة السوداء. موسيقى، غناء، مسرح، رواية، شعر، وغيرها. لكن مع دخولها الربع الأخير من نفس القرن، عمّ الفقر فغادرها أكثر سكانها. عائلتي رفضتْ الخروج، فقد كانت هارلم عالمهم الأجمل. ومنها انطلقت رقصة الهيب هوب وتلك الموسيقى الرائعة التي عشقها الكثير، والسبب أنها امتزجت بالألم والسحر إنها الجاااااااااااز يا صديقي. قالها بصوت حماسي.

التفتَ وكان لا يزال يؤدي رقصته، وقعتْ عيناه عليها، بحلق بها بعينيه الواسعتين، السوداوين ناصعتَي البياض. مطّ رقبته الطويلة للأمام، قهقه ثمّ وقف وأدى التحية لها. لم تُعرْه بدورها أي اهتمام. لم ترد التحية واكتفتْ برمقه بعينيها المتحجرتين.. استدار.. من هذه الجميلة الصامتة، هل هي بكماء؟؟ هههههههه أها فغيابك مبرر يا صاحبي، هيا هيا اعترفْ، منذ

متى؟؟ غمزه بخبث. ثم عاد والتفتَ نحوها. انفرج فمه عن ابتسامة ماكرة، عريضة فضحت بياض أسنانه، هيا اعترف يا خبيث، قهقه وعاد للرقص...

أغلق فمك واتبعني لنحتسي القهوة معا ثم أحكي لك كل شيء..

تبعه نحو المطبخ.

كأني بوزنك قد تضاعف يا ولد؟ ههه.

لم يُعره اهتماماً.

جلسا حول طاولة صغيرة وبخار القهوة يتصاعد أمام وجوههما. صمتا للحظات. أطلق القطار صفارته في المحطة القريبة. إنها لا تشبه صفارة القطار هناك. أتعلم!!.. إنّ هذه المدينة الرتيبة جعلتني على هامش الحياة، فالوقت هنا لا قيمة له كما هناك. قلتُ له بأنها مدينة عاهرة، رمادية، و و و..... لم يستمع إلي، قال لي لا أريد خسارة جديدة!! هل كان يظنّ بأنّ حصولي على بكالوريس الهندسة النووية سيمكنني من اختراق مفاعل ديمونة لأعطل قنابلهم التي من المحتمل بأنهم قاموا بتصنيع عشرات منها على الأقل بمساعدة فرق فرنسية!! أخبَرَني ذات مرة بأنّ فريقًا جيولوجيًّا منهم، قد عثر على رواسب ضخمة من عنصر الفسفور تحتوي على اليورانيوم في صحراء النقب، كان هذا قبل النكبة. أتدري؟ صمتَ قليلا ثم تابع بأسى.. إنهم يسرقون خيراتنا ثم يقتلوننا بها! سحب شهيقًا عميقًا ثم أطلق زفرة حارة، بينما هي هناك تجلس ساكنة كالمومياء على أريكة في الصالة. لم تغضبْ أو تكترثْ لاختلائهما في المطبخ دون دعوتها لمشاركتهما القهوة الساخنة بالرغم من رائحتها التي تسربت داخل أنفها.

لم أحبّها، إن نظرتها لا تريحني يا رجل!!

البخار يتصاعد من كوبَي القهوة، والقطار يطلق صفارته بنزق، وهو يكرر على مسامعه.. لم أحبها.. لم أرتح لنظراتها!! ألا تسمعني؟ اطردها من هنا، تخلص منها.. وإلّا...!!

وإلّا ماذا؟؟ هل ستقطع علاقتك بي؟ لا بأس، افعلْها واخرجْ الآن من هنا.

هيه هيه ما بك يا رجل؟ من قال أني سأقطع علاقتي بك؟ إنني أنقلُ لك شعوري تجاه هذه البكماء التي تتكوم على الأريكة كعجوز أصابها الكساح لا غير...

حاولَ إقناعه بأنّه أحبها لأنها مختلفة. فهي لا تتدخلُ أو تحشرُ أنفها بما لا يعنيها. فضلاً عن أنّها لا تخون كبعض نساء هذه المدينة.

لكنه عجز عن إقناعه. فقد قهقه هذه المرة بصوت زلزل الشقة، أحببتها!! أتقول بأنك أحببتها؟ يا رجل إنها لا تشبه النساء بشيء، إنها كالجماد لا يستفزها شيء ولا تثور لشيء. إنك لا تستطيع أن تنعت المرأة بأنثى إلا إذا كان لديها ثورة!! ثم لا تقل بأنك تنام معها على نفس السرير وتمارس معها الحب أيضا!! عاد ليضحك بشكل هيستيري وحبات العرق تتزحلقُ على جلده الأسود..

شعر حنظلة كأنه ينفخ في الرماد، فصمتَ.. لا يريد أن يخسره.

المهم أيّها الخبيث قلتَ بأنك ستحكي لي ونحن نحتسي القهوة.. هيا قل، كيف تعرفت إليها وأين؟؟

ذكّره بأحداث آخر سهرة لهم في شقته. بذلك الحوار الذي كان نقطة تحول في حياته. بدأ يشرح له كيف كانت كلمات السمين من أقوى الصفعات التي تلقاها طوال سنيّ عمره..

استرسل في الحديث.. ليلتها عرفتُ بأنّ الدنيا لا ترحم الضعيف. وهي ظلّ لكل قوي، عرفتُ بأنّ أمثالنا بالنسبة لهم، مجرد أرقام على بياض باهت، عرفتُ بأنّ المعروف يضيع حتى مع صانعه أحيانا.

أتذْكرُ يا مارتن عندما كان يلتجئ إليّ كلما استعصتْ عليه مسألة في واحدة من المواد الصعبة، ألم أكن أسهر معه حتى الفجر لنحلّ ما استعصى عليه؟ أرأيت كيف أزاح القناع الذي ارتداه أمامنا لسنوات!! تنهّدَ.. المهم يا صديقي أنني بعد أن خرجتُ تلك الليلة، تهتُ في الشوارع، دخلتُ جادات غريبة لم أدخلها منذ قدمتُ إلى هذه المدينة. سرتُ حتى شعرتُ بأني أغيبُ عن الوعي، فقد صغر كل شيء من حولي واختُزِل الوجود إلى دوائر صغيرة متداخلة بأصوات بعيدة تطنّ في رأسي كطنين زنابير في أول معركة لها مع أخرى من بني جنسها. كما تداخلتْ مع صوت الرعد ومطر غاضب تنتحرُ قطراته على الأرض الموحلة. فجأة تناهت إلى سمعي كلمات مرتجفة، ملعووون، ملعوووون، ذاك السمين ملعون. تلفتُّ من حولي، علّني أعثر على مصدر الصوت. دققتُ جيدا فإذ به صوت الشوارع، الجادات، أعمدة الإضاءة البعيدة، البيوت. بل قل إنه كان صوت المدينة بأكملها وكأنها تتبرأ من السمين وتزيح عن كاهلها ذلك العبء الثقيل من الاتهامات التي كلْتُها لها منذ وصولي، قلتُ لها بأن السمين هو واحد من أبنائك، وقد اكتسبَ صفاتك ونتانتك. فلِمَ تتقولين عليه؟ وفي لحظة ازداد صخبها وبرودة هوائها. كأنما كانت تعاقبني. تابعتُ طريقي متجاهلاً إيّاها، كنت قاسيًا معها ولم ينتَبْني الندم، فهي التي فتحتْ ذراعيها لهم عندما قدموا من بولندا، روسيا، ألمانيا. ألم تفتح لهم أسواقها وبنوكها أيضا؟ تحكموا بها ولم تعترض عليهم يوما. اغتصبوها عشرات المرات دون أن تتذمر. قلت لها بأنني أكرهها كما تفعل هي. لكن لِمَ عساها تحتال علي الآن، علام

تساومني؟ ألأنني أسكن شقة على رقعة من أرضها؟ أستولي على أكسجينها؟ هل تظن بأنني سارق؟ ماذا سرقت أنا مقابل ما سرقت هي؟ قايضتني على شبابي مقابل هرمها وبشاعتها حتى غدوت كبالون منتفخ. قلت لها بأنك لستِ أمّا حقيقية لهم، لا ترتبطين معهم برباط رحمي. وقريبا ستفغرين فاك وتلتهمينهم بقذاراتهم، بأموالهم بشيء يشبه الزلزال ولن يكون رحيمًا معهم فقد يتعدى الدرجات العشر من ذلك المقياس المسمى ريختر. ثم تتقيَّئين مياه أحشائك تبتلعهم. يموت من يموت، ويهرب من يهرب منهم إلى موانِئ الأرض المقدسة عبر المتوسط، يدخلونها وهم آخر بقاياهم، فقط هنا تبدأ معركة دحرجة الرؤوس ليعرفوا أن شعبًا عاد، كما أخبر أجدادنا. يشقون الصحارى ويركبون الأمواج.

أوشكتُ وقتها على الانهيار. وقبل أن أسقط وقع نظري عليها في تلك الحفرة الموحلة، فاستيقظ العشق بداخلي. سرتْ رعشات الحبّ في أعصابي. شعرتُ بالأمان. هل أعترف لك بشيء؟ لقد كانت كأنها مخدر للألم الذي كان يجتاحني ليلتها.

صمتَ لحظات ثم تابع كلامه.. أنت تتحدثُ بعقلك أيها الأسود. بينما أنا أتحدث بقلبي. إنني ضعيف أمام النساء ولا أعرف هل هذا نقص بي أم أنه اكتمال؟ أنا واقع في غرامها. اسمع..

دعني أعترف لك. صمتَ مرة أخرى ثم فرقع أصابعه وتمتم بصوت منخفض.. إنّها تختلف عن تلك الشقراء التي أغوتني أنوثتها ذات يوم..

كادتْ تنفلتُ ضحكة من مارتن، كبتها في الحال كموجة ماتت في مكانها وقال بتهكم.. أمّا هذه فقد أغوتك بجسدها الشمعي الأسود وعينيها المتحجرتين! هههههه دعك من كومة الرمل يا رجل إنها ليست

من النساء اللواتي يحركن ذلك الشيء النائم أسفل بنطالك، فما نفعها هههههه.... ولا تحاول إقناعي. ربما يوما ما إذا ما رأيت هذا الكرسي (وربتَّ على الكرسي الذي يجلس عليه) زهرة فإنني ربما، وأقول ربما، سأقتنع بأنها امرأة، إنك تهلوس وأراك قد جددتَ حياتك مع الشيء الخطأ. ها أنت تقنع نفسك بأنها امرأة لكنك في النهاية ستنتحر أو تُجن عندما تكتشف أنها ليست سوى كومة لئيمة. أتدري؟؟ إني أرى بأنك تعيش نوعًا من السريالية الخبيثة يا رجل. فأنت تذكرني برامبو عندما رأى المعمل جامعاً. إياك أنْ تسمح لها بأن تخرب عقلك. ونقر على جانب رأسه بطرف سبابته... اسمعني يا ولد، قالها وهو يمرر أصابعه في شعره المتلبد.. هنا في هذه المدينة لا أحد يثق بالآخر! حتى كومة الرمل خاصتك، لا تثق بها فقد تغدر بك يومًا ولعلها تخونك دون أن تعلم...

قهقه حنظلة.. أتعلم! إن حالتك تدعو للرثاء يا رجل. إنكم في هذه المدينة مصابون بسعار الجنس ولا تمتلكون أية مشاعر. ثقْ أيّها الأسود الجميل بأنّ المشاعر التي تخرج من القلب حتمًا ستصل إلى القلب. وأنتم مشاعركم لا تتعدى حناجركم.... صمتَ هنيهه ثم بادر مارتن بسؤال.

لماذا هو مصاب بكل هذا الحنق؟ وكان يقصد السمين.

فتح علبة المشروب، تجرّع نصفها على نفس واحد. مسح فمه بطرف أصابعه.. أشعل سيجارة، أخذ نفسًا طويلاً، نفثه جانبًا، سعل قليلاً ثم قال... إنّنا يا صديقي نغضب عندما نحاول إخفاء حقيقة ما. كما أنت! ألا تخفي حقيقة أنها مجرد كومة رمل؟؟ هههه.. أتعلم! إنني أستغرب من أولئك الذين نفوا وجود عين كامنة في القلب كلما رأيتك وقد تعلقتَ بها خلال هذه المدة التي لا تقاس بأكثر من رمشة عين. مع أني لا أتخيل بأنّها

أكثر من قطعة من ألاسكا. ومع ذلك فهي تسري في جسدك كالحمى، تحاصرك بذلك الحصار اللامرئي..

لم يبالِ حنظلة بكل ما قاله صديقه الأسود عن حبيبته واسترسل بكلامه عما حدث تلك الليلة..

كم أتمنى أن تحترق تلك الصفحة من ذاكرتي..

وإذا ما تبقتْ بعض الجمرات متقدة أسفل رمادها، فماذا عساك فاعل؟؟ تناول قطعة من صندوق البيتزا وكومها في فمه وبدأ يلوكها؟؟ اسمعني يا صديقي.. هناك قاعدة مجربة تقول (أخرج لسانك وقصه إن كنت ستُعاقَب بسببه). أخرج لسانه بعد أنْ دفع ما في فمه نحو بلعومه، ثم نقره بسبابته عدة مرات.. وتابع، لقد كان نقاشكما في البداية بيزنطيا بامتياز.. صمت هنيهة ثم أكمل.. ولكن مواطنة السمين في النهاية هي التي انتصرت، أضف إلى ذلك أنك شككتَ في رقم الستة ملايين، ومن سوء حظك فقد سُنَّ قانون عام 1990 تحت مسمى (جيسو) يقضي بالسجن لكل من يشكّك في هذا الرقم. أتعلم بأنك خدشت قدسية هذا الرقم عندما شككت به؟ وبهذا تكون قد دسست ملعقتك في طبقهم. ألم تلحظ كيف كان يتصيد الكلمات بفمه الأشبه بمصيدة فئران!... تململ كأنه يجلس على جمر ثم مطّ رقبته وقربها من وجه حنظلة.. أتعلم يا ولد إني أخاف عليك من ذلك الوغد؟ فحتى منظمات حقوق الإنسان لن تتمكن من حمايتك لأنها أصلا لا تتمتع بسلطات تنفيذية، لذلك فأحكامها عرضة للتجاوز. وأي تجاوز لن يكون لمن والده سيناتور؟؟ وهل تعلم أيضا بأنَّ نفوذهم في الكونغرس الأمريكي أقوى بكثير من نفوذ الرئيس الأمريكي نفسه خصوصًا في الأشهر التي تسبق انتخابات الرئاسة؟ ابتعد عن ذلك البدين يا حنظلة ولا تحاول أن تمدّ يدك مرة أخرى في عشّ الدبابير..

(3)

أخرج خمسة دولارات من جيب معطفه القصير، وقبل أن يضعها تحت فنجان القهوة تأملها قليلا، تألم، تذكر صوت القنابل، الرشاشات السريعة، قذائف الهاون، صراخ الأطفال وعويل النساء، بكاء البحر، هروب الطيور، طوابير اللاجئين، طحينًا، عدسًا، حليبًا مجفّفًا للأطفال مع مضافات غذائية، صوت فحيح المذيعين في إذاعات العالم العاشر، اتفاقيات، معاهدات، خيانات، صفقات، شحنات أسلحة منتهية الصلاحية، حربًا جرثومية، مذابح، توسيع حدود، أمه، أباه. ارتجفت يداه قبل أن يقدم على تمزيقها دون وعي منه. ألقى بها في سلة المهملات. ثم أتبعها شتائم كثيرة، وكأن هذه الدولارات المسكينة هي من باعتْ، أضاعتْ، صمَّتْ أذنيها، شرَّدتْ، هجّرتْ، دمّرتْ، خانتْ. مدّ يده داخل جيبه ليستخرج غيرها فانتبه لزبونٍ يتجرع كأس كونياك على الطاولة المجاورة وقد أصابتْه الدهشة. ربما هي الحسرة على الدولارات التي كانت من نصيب سلة المهملات! أو أنه ربما استطاع اختلاس النظر إلى ذاكرته! فرأى مشاهد كان عليه أن لا يراها. لأنها قد تكون محرمة دوليا، دسَّ ورقة لم يعرف قيمتها أسفل الفنجان، وانسل مسرعًا خارج المقهى بعد أن لمح مارتن يلوِّح له من خلف زجاج الواجهة الأمامية...

لقد وجدوها مقتولة!!

من؟؟؟؟؟

الشقراء، لقد وجدوها جثة متعفنة بعد أسبوع في شقتها من قبل الشرطة الفيدرالية.

انظر، انظر إلى ذلك المهرج في....، إنه يقوم برسم أشكال على وجوه المتنزهين تعبيرا عن اليوم العالمي للسلام..!!

سلام وفي أكبر حديقة في نيويورك العاهرة!!

هههههههههه، هيا يا مارتن حان موعد رقصتك المفضلة، هيا ارقص للسلام وأنا سأصفق لك، وهم أيضا سيصفقون، كل الخون سيصفقون لك، ارقص يا مارتن لنسقط المعاهدات، الاتفاقيات، الخيانات، أرقص للسلام..!! ارقص لأؤلئك العاجزون جنسيًّا، يعقدون مؤتمرات الاستسلام، يتكلمون على لساننا، يبيعون أوطاننا باسم السلام بعد مصادرة قرارنا السياسي، ارقص لهم، هيا.

ضحك مارتن، اسكت، اسكت يا حنظلة كدتُ أتبول في سروالي. تقول عاجزون جنسيا؟ هههههه وهل كشفت عليهم هههههه؟

تعال، تعال، انظر أيها الأسود الجميل ما رأيك بشراء تلك المجلة. غمزه، إنها إباحية. سحبه من ذراعه مشيرا إلى أحد الباعة، ما رأيك بهذا الجهاز الذي ينادون على بيعه هناك؟ أمام بائع معقوف الأنف، ضيق العينين، أرخى العنان لجديلتين طالتا حتى تجاوزتا أذنيه. وقفا، وكان قد افترش الرصيف وفرد بضاعته الخطيرة!!.. إنه يقول بأنه جهاز تجسس ولا يزيد سعره عن ستين دولارًا يتيح لك النوم مع جارتك الجميلة!! هههههههههه

قهقه الاثنان. وتركا البائع الذي أتبعهما شتائم كثيرة بعد أن تعب وهو يشرح لهما مبدأ عمل الجهاز. وندم على هذا الشرح المفصل كندم نيلز بور على وضع فكرة صناعة القنبلة الذرية في دماغ روزفلت...

قلت بأنهم وجدوها مقتولة!! من هي؟؟ قل اسمها مرة أخرى فقد نسيته من هول مفاجأة السلام!!

ما بك يا خبيث؟ إنها الشقراء.... يقولون بأنها هذه المرة وقعت حقيقة في الحب. اتفقتْ مع حبيبها على الزواج لأنها ترغب في أن تصبح أمّا صالحة!! لكن هيهههههات.... إنّها (منضمة القبالة) التي لن ترضى عن هذه المغامرة من إحدى أقوى أعضائها.. لقد خدمتهم لسنوات وها هم يقدمون على تصفيتها كأي عضو يقدم على خرق تعليماتهم... هذا ما قاله الحشرة السمين!!

تعال لنرتح قليلاً على أرضية الحديقة وأكمل لك باقي القصة..

نبح ذات مرة بشكل هيستيري وهو مخمور.. العاهرة.. السافلة.. ابنة الزانية... ترنح وهو يحمل الكأس خطوة للخلف.. خطوتين للأمام.. خانتني مع ذلك المسخ.. جاك.. سأقول لحضرة السيناتور.. وتجرّع ما تبقى في الكأس دفعة واحدة ثم تقيأ كل ما كان في كرشه، حتى إنَّ كلبه تقزز منه فرفع رجله وأبعد ذيله وتبول على قدمه ثم رفع رأسه ومضى ليسترخي على أريكة نظيفة.. هههههه يا له من كلب إنه يعرف حدوده جيدا ويصطاد الأوقات المناسبة!!!

كانت إحدى الأمسيات تجلسُ على الأريكة، أمسكتْ سيجارة وأخذتْ تقسو عليها بين أصبعيها كأنما كانت تمسك بـ.... بذلك الشيء أسفل بنطال السمين هههه، طبعا هذا ما جال في مخيلته.. المهم سحبتْ دخانها بنشوة عارمة ونفختْه في وجهه حتى كاد أن يغمى عليه، التمعتْ حبات عرق نضَحتْها جبهته، تبخرتْ سريعًا، ربما جراء حرارة جسمه التي ارتفعتْ بسبب... هههههه، صبَّ لها كأساً من الويسكي ثم صبَّ واحدة لنفسه..

بصحتك.. بصحتك، لعق شفتيه كقط، قاس جسدها سنتمترا سنتمترا، ثم ابتعد بنظره إلى فخذيها اللذين فضحت بياضهما تنورتها النيلية. آه من ذلك النيلي المتمرد، فإن كان للشهوة لون تلك اللحظة فقد كان النيلي.. ابتلع ريقه وانسلَّ من بيننا بعد أن تصلب ال ال.. لقد فضحه سروال الجينز الضيق الذي كان يرتديه... غمزها من زاوية قريبة من الحمام. الملعونة استجابتْ له سريعًا يبدو بأنها لم تكن أقلّ رغبة منه لذلك الشيء..

تحججتُ وقتها بالذهاب لإفراغ مثانتي وتبعتها..

يا لك من ماكر أيها الأسود..أكمل، أكمل.

خطوتُ بخفه.. بببببببمممممممممم تنورتها كانت قد وصلتْ لأنصاف ساقيها.. انحنتْ للأمام، أمسك خصرها بإحدى يديه وبالأخرى كان يداعب نهديها الصغيرين وأدخل ال ال... تأوهت بصوت مكبوت تأوه بدوره، شهق كخنزير، وانتهى المشهد. كان لعابه بعد ذلك يسيل كلما لمح اللون النيلي.. نفر الدم إلى رأسي وشعرت بتهيج شديد، ثم انسحبتُ خارج الشقة..

عاهرررررررة.. شاااااااااااااذ..

التقط عودًا من أرضية الحديقة، رسم هرمًا على التراب.. ثم قال: إنه يشبه هذه المدينة. أشار إلى قاعدته.. هنا تكمنُ الشريحة العظمى من الجياع، المدمنين، الشواذ، سارقو الفتات، المومسات، الرقيق الأبيض، الناموس، الذباب، الفضلات. وبحركة سريعة انتقل بسبابته النحيفة الطويلة إلى رأس الهرم، نقرها بعنف.. أما هنا فيكمن آكلو اللحوم، الذهب، الأحجار الكريمة، باختصار المصابون بالتخمة. حكّ ذقنه هنيهه ثم واصل.. أحدهم قال، إنَّ جد السمين مات بسبب التخمة، بعد أن ابتلع البورصة

بالكامل، بعدها استيقظ ليلاً على مغص حادّ لم يستطع الأطباء السيطرة عليه، ففرط كما تقولون هههههههه... مدينة تضخمت فيها الفوارق بين الطبقات وهي ثملة لا زالت تهز ردفيها على إيقاع خشخشة المال..

إننا يا عاشق هارلم في زمن يتم به توقيع العقود من تحت الطاولات ثم تُمرّر لتتزحلق على الأفخاذ الطرية الناعمة. تدور دورتها حتى تصل إلى أصابع خشنة تزينها خواتم الذهب والماس على شكل نجمة، شمعدان، شمس، نجوم... شبرة أمرة شمس نجوم هههههه لقد تذكرتُ فجأة لعبة كانت تلعبها بنات الحي هناك حيث يؤتى بحبل طوله مناسب تمسكه فتاتان من الأطراف ويحركانه بشكل دائري وثالثة تقفز في وسطه، وتقفز معها جديلتاها المشاكستان.. وكنا نحن الأولاد نقف قريبا منهن نرشقهن بعبارات الغزل.. ليتنا بدل الحبل أو ليتنا مكان الجديلة فيقذفننا بالشتائم والمسبات التي لا تتسبب بأيّ انفجار، كأسلحة العرب هههههه منتهية الصلاحية...

قفز الاثنان واستأنفا سيرهما...

ما أخبار حبيبتك البكماء، كومة الرمل؟؟ هههههه..

إنني أقوم بتدريبها لتقف معي على خشبة المسرح ذات يوم...

أحسنت، إنّ هذا هو الدور الوحيد الذي ستبدع به من وجهة نظري.. هههههه أما أن تكون امرأة كالشقراء فهذا محال.. وكرّر لم أحبها.. لم أرتحْ لنظرة عينيها..

هل أرقص لكما يا حنظلة؟ هههههههه..

بدتْ نيويورك في ضوء النهار كقطة أليفة تترنح في الشوارع زكمتْ أنفها رائحة أدخنة المصانع، السيارات، القطارات، رائحة شواط البورصة

في وول ستريت، خطابات متعفنة في مبنى الأمم المتحدة. بينما في الليل يظهر وجهها الآخر حينما تُمسك وردة حمراء تقدمها لكل عاهر، شاذ، منتحر جنسيًّا، كقبلة ملتهبة على شفاههم، فيسقطون شوقًا إلى هاوية القذارة مع ألف كتاب شكر منها... إنّها نيويورك وكر الدعارة ومغارة اللصوص، مدينة تتآكل في أزقتها الأرواح بعد أن تغرق في سعار الجنس، الإدمان، القتل، الظلم، إنّها عالم من الوحل والقذارة، مدينة تثير شهوة الجريمة في النفوس، إنّها مدينة انعكاسات الشرّ الكامن في نفوس أبنائها، زوّارها، وكل من تسوّل له نفسه أن يتورط معها... مدينة تشبه الموت الذي ما أن يغرز نابه في الأشياء حتى تفقد نضارتها..

قطّب حنظلة جبينه وفكّر في نفسه.. كم من الوقت بقي لي هنا في مدينة الأشباح؟ وحثّ خطوات جسده الطويل (الذي لا ينقصه الامتلاء البعيد قليلا عن البدانة) خلف صديقه الأسود..

تخطّيا حديقة سنترال بارك. سارا شمالاً عبر مقرّ الأمم المتحدة فقام حنظلة بإعطاء ظهره له إلى أن تعدياه وقال.. هذا هو الكذبة الكبرى التي تسيطر عليها الولايات الأميركية المتحدة الإمبريالية وذيولها، هذا هو الذي كمم أفواهنا لعقود ولا زال، فليذهب إلى الجحيم مع جميع الخطابات التخديرية التي أُلقيتْ فيه... لمح مارتن دموعًا في عينيه، بادر بمسحها سريعًا. لاذ مارتن بالصمت ولم يعلق. سرّعا خطواتهما، انحدرا شرقا مرورا بتمثال الحرية، وهنا سار حنظلة على يديه منكسًا رأسه للأسفل ورافعًا قدميه للأعلى.

كان يرحب بملايين المهاجرين القادمين على ظهر السفن في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.. قال مارتن وكان رافعًا سبابته يشير إلى تمثال العبودية!!!!!

سار نحو الشمال بساقيه الطويلتين وجسده النحيف تاركًا خلفه ميدان التايمز على عجل ولحق به حنظلة لاهثًا..

طول الساقين مع نحافة الجسد مفيدة أحيانا هههههه.

.. يا رجل لقد تخطينا مبنى المسرح.. صرخ حنظلة.

اتبعني، أسرع، لن تذهب اليوم إلى المسرح لقد أعطيتك إجازة هههههههههه...

وهي؟؟؟؟

من؟ هيلانة؟؟

أقول لك هي!! أيها الخبيث..

سيتزوجها فاوست!! هههههه.... فلتذهب إلى الجحيم!!

من الذي يذهب إلى الجحيم؟؟

هي!! سترافقني إلى هارلم..

سيقطعونني إربا، قالها واستدار ليعود أدراجه لولا أن سحبه من ذراعه..

لا عليك يا رجل إنك في ضيافتي، لا تخف أنت في أمان..

أنظر إنها هارلم الجميلة المكان الأروع في المدينة العاهرة! هيا، هيا أسرع قبل فوات الأوان!!

أمسكه من ذراعه وبدأ الاثنان بالقفز!! لا تستغرب فالناس هنا يقفزون من أجل أن يسبقوا الوقت، هنا يختلف عن هناك، إنّه كنصل السكين، إذا فوته قطعك... هيّا اقفز يا رجل، اقفز أعلى أعلى..... ها نحن ذا أمام الهدف.. أترى هذه الدوامه!! سندخل من خلالها!!

تراجع حنظلة للخلف وأدار ظهره هذه المرة وأراد أن يركض لكنه عجز، كان قد نسي بأنّ الناس هنا يقفزون فقط..

أمسكه الأسود من الخلف ودفع به داخل الدوامة التي بدأت بالتلاشي ولحق به.....

(4)

فتح عينيه على رائحة أشجار الأترج والليمون، أخذ نفسًا عميقًا وأتبعه زفرة انطلق معها بخار رئتيه، تلفَّت حواليه، انبهر لما رأى، لم يتمكن من التعرف على المكان ولا معرفة ما حصل، وكلّ ما يعرفه الآن أنه وعلى ما يبدو يقف على أعلى قمة في هذه البقعة من الأرض. لمح مارتن يحمل حزمة حطب. سارع إليه. أيها الخبيث أين نحن؟؟ وكيف وصلنا إلى هنا؟

لقد سافرنا عبر الزمن أيها الجاهل! ألم تشاهد فيلم تايم مشين؟ نحن الآن نؤدي دور البطولة فيه، إنّنا في مكان وزمان محايدين، سنراقب من هنا ثم إن اضطرنا الموقف سنقفز ونقترب منهم، ندقق بهم في تصرفاتهم، وجوههم. إنّها فيزياء الأجساد التي ستعكس لنا بذاءة تفكيرهم وما ارتكبوا في الماضي ههه..

كم أنت وغد يا مارتن، من هم أولئك الذين سنقوم بمراقبتهم؟؟ وفي أي بقعة نحن الآن؟

لن تندم واهدأ الآن قليلا، دعني أشعل النار لنتدفأ ثم أخبرك أين نحن!!

قرفص كلاهما أمام كومة الحطب فيما بدأت النار تنهش أطرافها بالتدريج، اقتربا أكثر، المكان بارد جدا، أخرج من جيب معطفه زجاجة ويسكي صغيرة ناولها حنظلة، اشرب سوف تشعر بالدفء..

أزاحها بيده، كم مرة سأشرح لك بأني لا أشرب!

سحب يده وأدخل عنق الزجاجة في فمه، أطبق عليها شفتيه الضخمتين، تجرع عدة جرعات، أصدرتْ صوتا خدش صمت المكان، بق بق بق ثم سحبها للخارج.. إنّنا على جبل الجرمق يا ولد.. انظر فقط ودقق سأجعلك تتابع فيلما وثائقيا تاريخيا تعود أحداثه للقرن السادس قبل الميلاد...

وهل تظن نفسك هيرودوت...!!

ولِمَ لا أكون أنا هو بذاته..؟

وهل الأموات يخرجون من قبورهم؟؟

لا ولكنهم قد يتركون عقولهم لنا في الخارج.. ما رأيك أن تقفل فمك يا فتى وتشاهد وستشكرني فيما بعد... ناوله قطعة من الخبز مع قطعة لحم مقدد..

قال حنظلة وهو يلوكها ويقهقه.. أتعلم لقد ذكرتني بقصة هيبرون حيث يذكر لونغفيلو أنّ الحديث مع رجل عاقل أثناء الطعام هو أحسن من الانكباب على قراءة الكتب لمدة عشر سنوات...

جيد أنك تعتبرني رجلا عاقلا هههههه. اِهدأ الآن وراقب لقد بدأ العرض، قفز للأعلى ودار على نفسه ثم سكن، بحلق حيث انفتحتْ شاشة تشبه تلك التي تعرض عليها الأفلام في دور السينما...

جيوش، صهيل، خيل، صليل سيوف، سيمفونية التطهير.. بختنصر البابلي على تخوم فلسطين، أزال إسرائيل عن الوجود، سيطر على يهودا، دفعتْ له الجزية..

قفزت عينا حنظلة للأمام مسافة عمر.

يهودا تخون، تغدر، بختنصر يسلب كنوز معبدها، يدمرها..

انقراض، شتات..

في بابل يخونون

في فلسطين يغدرون

في الشتات.. مستعمرات، ذهب، فضة، أموال، ربا..

لِمَ لا ترقص يا حنظلة؟ ارقص لبختنصر، ارقص لغباء الكلدانيين، هل رأيته وهو يهبهم أخصب مقاطعاته في بابل..؟

أكمل رقصتك ها هم يتآمرون، يخططون، يتمردون...

انظر انظر..

إلام يا مارتن؟

إلى أصحاب القبعات إنهم يجتمعون هناك، يخططون، يدبرون، يتصلون سرًّا، بكورش الفارسي، تابع يا ولد، لقد سقطت بابل... ارقص لهم، ارقص له، ارقص لها، ارقص لفارس....

الملك ارتخستس، الوزير هامان، إستر، مؤامرة، زفاف، قديسة الإعدام، سفر إستر..

ارقص يا حنظلة.....

ارتخستس الثالث، نفي، الوجهة بلاد الخزر.

ارقص يا حنظلة...

الاسكندر المقدوني، اليونان، اتصالات سرية سقوط فارس..

هيا لنرقص معا...

نفوذ، أموال، الرومـــان، اتصـــالات سرية، خيانة، مؤامـــرة، سقـــوط اليونان...

هيب هوب يا حنظلة.. هيا لنرقص...

تيتوس، أسوار القدس، حصار، جوع، أوبئة، إحراق الهيكل، بيع في سوق النخاسة، تحريم دخولهم إلى القدس..

(5)

فحيح يتسربُ من إحدى النوافذ الموارِبة. أصحاب القبعات يجتمعون متقابلين ضمن حلقة ضيقة، سنلقنهم تعاليم الماسونية، نحرّض الشعب على المطالبة بإعادة الدستور. تزداد حدة الفحيح.. إلغاء الحكم المطلق. إطلاق الحريات العامة. تقليص سيطرة الكنيسة. مقالات طويلة تتصدر الصحف تُحرّض الشعب على القيام بما نخطط له في شريحة تتوهم أنها محرومة من الحرية، العدالة، سنثير الفوضى، ووووووووو.... سينقادون لنا!! ارقصي يا إستر، ارقص يا حنظلة هههههه.

أين نحن؟؟ قال حنظلة بنزق.

استمع يا رجل استمع! قالها وهو يهزّ كتفيه.

أين نحن أيها الخبيث وفي أي زمن؟ صرخ به وأردف: قلت لك لا تعاملني كأني تابعك!

حسن، حسن إنك نافد الصبر وسيئ المزاج أيضا، سحبَ زجاجة الويسكي، خذ..

أزاحها بيده وصرخ به، قل.. وكاد يسدّد لكمة نحو أنفه....

أمسك يده وأبعدها عن وجهه، طيب، طيب يا ولد سأخبرك..

إننا أي أنا وأنت في القرن الثامن عشر للميلاد ونقف الآن على أرض فرنسا..

تحسّس نفسه. مرّرها على وجهه، مؤخرة رأسه، إننا مع الأموات، إذن فأنا ميت!

لا، لا، أنت حيّ مع أنك في زمن الأموات، روحك داخل جسدك لم تنفصل عنها، ألم تتحسّس نفسك قبل قليل؟ ولا زلت تستطيع القفز، الرقص، الشرب، الأكل، أما هم فعاجزون يكبلهم التراب، إنهم ليسوا سوى شخصيات على ورق من صنع التاريخ يتجولون في صفحات الكتب، أو في ذاكرة الأجداد، يحملون عار ما فعلوا وما يفعل أحفادهم الآن.

وماذا تسمي ما يحدث الآن في الداخل، سأل حنظلة؟ أتُراني لو أني قفزتُ الآن من خلال هذه النافذة إلى الداخل فهل يا ترى سأتمكن من لمس أجسادهم؟ قالها بتهكم ثم مطّ عنقه، وأخذ يتلصص عليهم. لكن قل من هؤلاء؟

هههههههه ألم تتعرف إليهم؟ إنهم خبث الأرض، إننا نقوم بتتبع أثرهم عبر الزمن..

اليهود يا ولد اليهود؟ الذين أسقطوا بابل، فارس، اليونان، الرومان، وأخيرا يخططون لقيام الثورة الفرنسية، هل تصدق بأنهم من خطط لها ودفع بالشعب للقيام بها؟؟

والرأسمالية اليهودية هل تعلم بأنها كانت خلف قيام الثورة الروسية البلشفية. جحظت عينا حنظلة. فبادره الأسود: لا تخف لن نذهب إلى روسيا، هههههه. فقط سأخبرك بما أعرف..

تعال، تعال، لنرتح قليلا هنا.. اسمع يا ولد، شنّف حنظلة أذنيه وقال: هات ما عندك أيها الخبيث، يبدو بأنك ستجعلني أهذي بك في منامي!!

اسمع.. وتذكر كلامي فيما بعد لكن حاول أنْ تحفظه جيدا. إنهم يعتمدون نفس المخططات مع جميع الدول لإيمانهم بأن تضخيم الثروات لا يتم إلا عن طريق استحداث الحروب.. قال مارتن. يسيطرون على بنوك العالم، تخيلْ بأن ثروة البارون روتشيلد كانت تقدر بكل ثروة فرنسا؟ أمّا بالنسبة لنفوذه فبلغ حدّ إسقاط الوزارات وتشكيلها وقسْ ذلك على جميع البلاد الأوروبية وأمريكا. ولا زال نفوذهم يمتدّ ليغطي العالم بأسره. حتى قضية الزنوج في أمريكا هم من صنعوها، والسبب العلاقات اليهودية الوثيقة بالنظام العنصري في جنوب أفريقيا... انظر كيف يتعاملون معهم، بإمكانك أن ترى ذلك من خلال الأدوار التي أسندوها للرجل الأسود في أفلام هوليوود على سبيل المثال لا الحصر.. همجي، متوحش، لص حقير، شبق، سياسي فاسد، متخلف عقليا، سائق غبي، ووو الكثير من الأدوار التي تعكس للمشاهد فكرة سيئة عن السود... هل تعلم أيضًا بأنّ يهود بولندا كانوا ما قبل الحرب العالمية الثانية يسيطرون على صناعة سينمائية كبيرة لا تضاهيها سوى صناعة الأفلام السينمائية اليهودية في مدينة العهر، نيويورك!!

اليهود يا صديقي هم من رقصوا في الكونغرس الأمريكي وحصلوا على مرادهم كما رقصت من قبل الأفعى سالومي ابنة هيروديا أمام هيرودس... إنّهم يعبدون ذلك المعدن الأصفر، ومن شدة عبادتهم له كانت من ضمن فلسفات تلمودهم أنه سيأتي زمن، تتجمع فيه ثروة الأمم في خزائنهم، حينها لن يتمكن من حمل مفاتيحها وأقفالها أقلّ من ثلاثمائة حمار.. هههههه

من أراد أن يعرف أكثر عن اليهود فليسأل نهر اللوار في فرنسا وضفاف الدانوب في المجر..... إنّهم الخفافيش التي تحتمي بسواد الليل لتنقضّ على فرائسها..

أتسمع يا مارتن ما أسمع؟ قال حنظلة بعد أن تسربت إلى أذنيه جلبة مصدرها من الداخل.

نعم نعم انتظر قليلا... مطّ رقبته من خلال النافذة، إنهم يذبحون الأطفال ويستخدمون دماءَهم في صنع فطيرهم الذي يدعون بأنه مقدس..

تقيأ حنظلة ما في معدته وتلوى جراء الألم الذي أصابه.. صرخ بوجه مارتن.. أعدني إلى حيث شقتي أيها الخبيث وإلا!

أجابه بأنه لا يستطيع العودة لأنه ترك الدوامة في القرن السادس قبل الميلاد بينما هم الآن في القرن الثامن عشر بعد الميلاد، ثم إنهما لو عادا قبل مشاهدة بقية الأحداث فسيكون ما قاموا بمشاهدته كلوحة العشاء الأخير لليوناردو دافنشي التي لم يسعفه الوقت ليكمل تلوينها... إذن ستكون مغامرة ناقصة وهو لا يحب تلك المغامرات غير المكتملة..

(6)

دخان قنابل يتلوى في الأعلى كأنّما أصابه مغص الخيانة، أشلاء تتطاير هنا وهناك، تقبّلُ الأرض قبلتها الأخيرة. دموع من بقايا السكة الحديدية الحجازية تعانق سماء أرض تعودتْ صحبتها لأعوام، منذرة بعاصفة تفتكُ بخاصرة أرض كنعان، خائن العرب الأشقر مهّد الطريق لقوات الثور لدخول فلسطين على خيول غُسِلتْ أدمغتها لتقوم بتلك الخيانة. دخل القدس جارًّا خلفه أذيالَ عار من أعطاه حقّ الدخول. غارزًا خنجر الانتداب في قلب فلسطين.

تقسيمٌ ثم وعدٌ فانتداب فقيام دولة.

انسحاب بريطانيا.. صوت خبيث يتردّد.. (هل سيكون هناك توترات بعد انسحاب البريطانيّين؟) يجيبه أحدهم: سيتمّ إصلاح ذلك ببضع مجازر محسوبة.....!!!!

انظر يا حنظلة إنّنا في منتصف القرن العشرين إلا خيبتين إنهم يرقصون لقيام دولتهم على جماجم أطفالكم إنّه العام 1948..

مذبحة دير ياسين، قبية، كفر قاسم، بلدة الشيخ، الطنطورة، قلقيلية... ووو غيرها.

56 في المئة من فلسطين لليهود... هل اشتقتَ للرقص يا حنظلة؟

ذبح، طرد، اعتقال، لجوء، نزوح، موت، جثث، مقاومة، أمل يُطلّ من عيون طفلة ترقُب كسرة خبز في فم عصفور..

حرب لستّة أيام.. انكسار، استيلاء على بقية فلسطين، فلسطين أسيرة، مذبوحة...

انتظر انتظر إنّه بيتنا، أبي يصرخ، أمي تُعتَقل، إنّه أنا أصرخ خلف أمي.... أمي أمي...

هيّا هيّا إنّها الدوامة، إننا في 2022 سحبه من يده وانزلقا عائدين من حيث أتيا.

توهان، اضطراب، أين أنا؟ أين نحن أيها الأحمق مارتن؟

طائرات تقف هناك على مدرجاتها وقد علاها الصدأ وتآكلت أجزاؤها، دبابة هنا وهناك طمسها الغبار، أسلحة في الساحات، في الشوارع، أصبحت مسرحًا للعقبان والنسور تبحث عن جثث لتقتات. أين شقتي؟ نيويورك تغرق، شقتي تغرق، أمريكا تغرق، تغرق.

وإستر لا زالت في ليلة حبّ حمراء، وهامان يتدلى على عود المشنقة.. ارقص يا حنظلة..

نظريات أينشتين وفرويد الإلحادية، تكعيبية بيكاسو، بروتوكولات الجريمة، حاخامات يتسترون بصليب يخفون خلفه نجمة، صكوك غفران، أيدي تُصفق ولا تدري لِمن! أمريكا تغرق، تغرق.

وإستر لا زالت في ليلة حبّ حمراء وهامان يتدلى على عود المشنقة، ارقص يا ولد ارقص.

صناديق انتخابات، خطة سلام عادية، خطة سلام قاتلة، نشيد الأمل. ملكيات بحار، خيانة سلاطين وملوك، أسلحة منتهية الصلاحية، هدن كاذبة لكسب الوقت، أسلحة ذرية. أمريكا تغرق، تغرق.

وإستر لا زالت في ليلــة حب حمراء وهامان يتدلى على عود المشنقة، فلنرقص.

جيوش وهمية، مشاريع دفاعية منقرضة، شيوعية، صراعات، أحزاب، مصانع بلاستيك، مصانع صابون للسلام، شعارات تعلو وتهبط: لا للسلاح، نعم للسلام. لا للجندية، فوضى، صراع طبقي، دعايات إباحية. وإستر لا زالت في ليلة حبّ حمراء وهامان يتدلى على عود المشنقة. ارقص هيّا يا حنظلة.

مفاعلات تعصف بها رياح الصحارى، غواصات باتت ملاذا للأسماك الصغيرة من الأعداء. إنّه عصر الموت، موت النفط والذهب، موت البورصة المجنونة. انتهى كل شي ء أيتها القارة الفتية، كل شيء أيتها القارة العجوز. نُصِب ميزان العدل.

فيضان، غرق، أميركا، عويل، بكاء موت، هدن، اتفاقيات...أميركا تغرق...

إني أغرق أيها الخبيث، أمسك برقبة مارتن وأخذ يضغط عليها بيده الممتلئة بقوة ويصرخ بأعلى صوته.. أريد أن أعوووووود أبي ينتظرني، وطني ينتظرني، لا أريد أنْ أموت هنا.. صرخ وصرخ، ومارتن لا زال يرفس بين يديه حتى كاد أن يختنق لو لم توقظه صافرة القطار النزق في المحطة القريبـــــة.. استيقظ، بحــث عن صديقـــه الأسود بين يديه، إنّهما خاليتـــان.

تبًّا لك يا مارتن، هل كان هذا الفيلم كابوسا؟ هههههه تذكّر ظهر اليوم عندما رافقه مارتن إلى مسرح الدمى فوجداه مغلقًا بسبب أعطال في

الإضاءة. عاد وقتها إلى شقته ونام.... هههههه كدتُ أقضي عليك لولا صافرة القطار أيها الأسود العزيز.. هههههه

رنَّ جرس الهاتف.. نعم يا أبي الليلة سأفتح الصندوق.. أسبوع واحد أُكمِل به ما تبقى وأعود.....

القسم الثاني

بعض الحنين تخدش القلب

(1)

الفتحات العلوية القريبة من سقف الغرفة تهتزّ، يقولون بأنها ريح الخريف التي تنبئ بحلول شتاء قريب هذا العام، هذا ما رددته السجينات.

إذن إنه شتاء آخر لا مرئي من فصول عمري، وهذا يعني بأنه سيكون هذا الشتاء الثاني الذي لن أراقص فيه قطرات المطر ولن أتمكن من رؤية تراب يافا وهو يلتهم مواليد الغيمات البكارى بكل شوق ونهم.

يافا كالغريبة يأتيها المساء يحطّ على كتفيها يلفها بسواده كشال يلفّ امرأة دخلت فترة الحداد. أتى شتاء آخر وأنا لا زلت هنا وهذا يعني أني لن أتمكنَ إلا من سماع أصوات مواء لشتاء سيهرب كما هربتْ مني كل الأشياء، الميناء، الشاطئ، ناجي، حنظلة، وأخيرا حريتي التي تسربتْ من بين أصابعي كحفنة ماء. كلّ الأشياء تموت، حتى الصور تهشمتْ أسفل سنابك الوقت وتناثرتْ في تيه اللاحقيقة وماتت. لا شيء سوى هذه الجدران القبيحة التي تتمثل لي كلّ لحظة كقطعان من ضباع متوحشة تنقض على مخيلتي كلما جاعتْ، أدفن رأسي في حطام مرآة ذاكرتي كنعامة جبانة.. وأترك قلبي وليمة لها...

تتسعُ لي الدنيا عندما تتمثلُ لي عيناك، أغوص في طيفهما أتسكعُ في طرقاتهما الواسعة. تُنسياني أنني أقبعُ في غرفة متهالكة لم أعدْ أميّز فيها ليلي من نهاري. عزلة إجبارية استهلكتْ أيام عمري.. تطوفُ ذكرياتي حول حبك كل ليلة داخل قلبي ولا تتحلل أبدًا. أناجيك، أناجي كل شيء فيك، سنواتك الأربعين، تينك الشعرات البيض في عوارضك، عدد أنفاسك،

لحظات لقائنا الأولى، عاما من الغياب، أعقد معك حوارات طويلة حتى يأخذني النوم منك عنوة عني. يحبسني داخل عالمه فأغدو سجينة عالمين، أستيقظ قبل الجميع لأتذوق كلماتك التي ظلّت عالقة في أذني فلا شيء يشبه طعمها. أحاول خنق جميع الأصوات لأتنصت عليها، لكنها سرعان ما تضيع في ضجيج النهار..

أسألك أحيانًا، هل أنت مجرد عابر حبّ في حياتي؟ إنني أضيع بدونك، أتوه في طرقات نهاياتها مسدودة، تفترسني خفافيش العتمة، تلتهمني غربان الوحشة، فماذا أفعل؟ أفتقدك حدّ الموت، حدّ الترهل حتى إنّ ذاكرتي الحبلى بك ستلد قريبا جمار شوقي إليك وتحرق ليلي الطويل، وأنا لا أقوى على السير على رماده على أمل العبور إليك. فما أوجع الفراق يا ناجي إنه أشدّ وجعًا من الموت، والشوق يحرق القلوب لو تدري، ناره تشبه طائر الشمس، ينام تحت جفوني، يؤرّقها فيصبح والليل توأمَين.. أدركتُ قدسية وجودك بعد أن اعتقلني هذا الغياب المسعور، لو تعلم كم دورة عقدتها لمناقشة حضورك! إنها الدورة الألف، ولم يحضر منك إلا طيفك، فهلّا أتيت؟

وتعلم أيضا بأنني أعيش في قيد مزدوج، أحدهما هذه الغرفة الموصدة والآخر دائرتي التي أنتما خارجها... حتى أنني أصبحت أهذي في منامي، فقد رأيتني مرة وقد كشّرتُ عن أنيابي كقطة، تعاركتُ مع إعصار التفّ حولي قذف بي داخل حدود اليأس واللارجعة، وأنت يا ناجي لقد لمحتك وأنا أتمزق، تُمرغ ثغرك بجثث الأزهار بشهوة مسعورة، تشبعها قبلا. ناديتك بصوت واهن، هل نسيتني؟ هل استبدلتَ شفتي بشفاه صفراء ذابلة؟ نظرتَ نحوي ورمقتني بلؤم، وأجبتني.. شفتان في اليد أفضل من

عشرة داخل إعصار.. فبكيتك، بكيتُ خيانتك، بكيتُ حبنا المقتول على شفاه ماتت داخل إعصار الغياب والوقت..

أتذْكُر بائع الذرة الطيب في ساحة الميناء؟ أتذْكره حينما كان يختلس النظر إلينا كلما وصل همسنا إلى أذنيه المختبئتين أسفل طاقية الصوف السوداء، يُقلّب كوزي الذرة على الجمر بكل حبّ، ترتسم ابتسامة حنون يرسلها لنا عبر قسمات وجهه النحيل. وعندما تلسعنا نسمات البرد كنا نقترب من العربة، يبادرنا بكلماته اللطيفة.. دفئا أيديكما على هذه الجمار الصديقة فكلّ من يعطينا الدفء هو صديق. هذه لا صديق لها، يرفع رأسه ويشير بسبابته نحو الموانئ، إنها تشكو البرد باستمرار. ثم يعود لمتابعة كوزي الذرة وهما تصدران فرقعة على الجمار.. تفضّلا بالصحة والهنا.. بعد أن يلفهما بورقة جريدة.. نتلقفها ونمضي نحو مقعدنا نحمل الحبّ والحزن مع كل حبة من حبات الذرة، نلتهمها حتى آخر حبّة، لكننا بعد مدة قصيرة نجوع فنعيد اجترارها مرة أخرى وكأننا نجترّ الألم والحزن في عربة البائع الطيب، ودموعه المخفية تحت رواسب أيامه ومعطفه المرتوق، وبرودة الأيام في عينيه.. أتذْكرُ؟ نعود لشقتنا الصغيرة نجترّ الألم للمرة الألف وكأننا لا نشبع منه، يبلغ الشبق أوجه ويتَّقد كجمرات عربة الذرة، نمارس الحب مرات عديدة، ثم نجلس ونتساءَل: لمَ يحصل كلّ هذا منذ التهمنا كوزي الذرة؟ فتجيبني بأن الذرة قد تكون إحدى المقويات الجنسية!! أو أن توحّد الحب والألم في حباتها هو السبب!!.. نضحك عندما نتذكر قرارات العرب وكيف غدت الذرة المشوية أقوى منها. نبكي، نتبعها قهقة حزينة. ومنذ تلك الليلة ونحن كمراهقين نلتهم الذرة ونمارس الحب. فهلا وجهت بطاقة دعوة للبائع الطيب؟ دعنا نعِدْ تلك الليلة ولو على أطراف الموانئ الباردة، فقط أريد أن أكون معك، أمتزج بك، لا أريد أن أنتحر في

هذا المعتقل البارد. فكن أنت المعتقل ولن أضرب عن تناول حبّك ولا عن التهام الذرة المشوية. سأرقص معك حتى تهترِئ أقدامنا ثم تحملني وتضعني على أطراف شمسك الدافئة لأكون طائرا على أهدابها، ولن أهرب كما تهرب الحروف من كلمة وطن....

والآن أخبرني هل ما زالت السفن ترسو بين نهدي مينائنا العتيق؟ وهل ما زالا عاشقين؟ أم أن السفن مثلي اعتقلها البحر وانقلب قاعه أوشفيتز يقدم وجبات كاملة الدسم؟ أخبرني هل ما زال مقعدنا يتوسط الساحة ويراقب الغروب وهو يتعانق مع آخر خط للأفق؟ كنّا نسميه الغزل الصامت اللذيذ، أتذْكُر؟ نصمت، نحدّق به وكأنّ الكون قد توقف نبضه هناك، ثم أتعمد قطع صمتنا كطفل في سنّ خرقاء بحاجة إلى الثرثرة..

سلِّم لي على المقعد والميناء وكل شيء هناك، واعتذر منهم جميعا، أخبرهم بأنّي لم أستطع توديعهم لكنّ ذاكرتي لا تزال تثرثر بهم، تهرب إليهم كلما اجتاحها البرد، والبرد دائم الاجتياح هنا كما تعلم...

نصحتني صديقة قبل أن يُفرج عنها، بأن أكتب لك وها أنا منذ ذلك اليوم وأنا أستمع لنصيحتها، أجترّ الذكريات كما الذرة المشوية وأكتب. لا تظن بأن الألم أضعفني، بل إنني أصبحتُ أكثر قوة من ذي قبل، ذلك لأنّ الذين يتألمون بشدة يصبحون أكثر قوة من غيرهم. غير أنها مجرد كلمات تعتصرني أحاول إخراجها كي أبقى على قيد الوعد بالبقاء والموت بينكما، نعم أنا لن أموت هنا بين هذه الجدران.

سأخبرك عن الأم الروحية للجميع هنا، وقد كان البعض يناديها ماما، أما أنا وبالرغم من الفارق الكبير بيني وبينها إلا أنها طلبتْ مني أن أناديها باسمها فقط، سيدة في نهاية الخمسين من العمر، ثاقبة الفكر، سريعة

الخطوات كثيرًا ما كنتُ أحسبها ستدخل في جدران الغرفة وهي تتنقل بين الأسيرات تعطي إرشاداتها لهذه، وتجبر بخاطر تلك، تقوي من ضعفت عزيمتها وأصابها اليأس، (بندول متحرك) كنت أقولها في نفسي. قوية بالرغم من السكري الذي تتحداه بإرادة مستدامة وحبات بيضاء صغيرة تنسى تناولها أحيانا بسبب انشغالها بالأهم، الأهم بالنسبة لها كانت القضية، قالت لنا ذات مرة بأننا نمتلك ما هو أقوى من البندقية، أقوى من كل أسلحتهم المطورة إنها الإرادة التي سنكسر بها ذلك الخليط الهشّ المسمى بالكيان الصهيوني هذا الخليط المستورد من فرنسا، بولونيا، إفريقيا، وووووووو..، نعم إرادتنا هي التي ستكسر عُقد النقص التي ولَّدت لديهم الغل والحقد.. هذا المعتقل ما هو إلّا طريق آخر للنضال، بداية بطريقة أخرى لثورة تولد بداخلنا كل لحظة. ثباتنا هنا هو انكسار لهم بل هو أقوى من تسديد فوهة بندقية محشوة بالرصاص نحو صدورهم.. هم ينظرون إلينا كقتلة وإلى أنفسهم كضحية، من أجل ذلك يقومون بما يقومون به من هدم لبيوتنا، اغتصاب لنسائنا، وفي النهاية يطردوننا خارج الحدود وإذا ما عجزوا يقتلوننا أو يقومون باعتقالنا. الصهيونية تمتلك نزعة عنصرية عنيفة، لذلك تقوم دوما بتلك الممارسات العرفية ضدنا وأفضل دليل على ذلك ما قاله موشي دايان الخنزير، ولا أظن بأن أحدا منا لا يعرف هذا الجزار وهو الذي قال في إحدى خطبه للمستوطنين اليهود (نحن جيل مستوطنين بغير الخوذة الحديدية أو المدفع لن نستطيع غرس شجرة واحدة أو بناء مسكن واحد في فلسطين). لكننا لن نشكّ لحظة بأن أيام الكيان ما بدأت هنا إلا لتنتهي يومًا هنا وعلى أيدينا. توقفت قليلاً، شربت جرعة من الماء، ثم تابعتْ.. يمتلكون نفَسًا طويلاً ونحن سنتّبع هذا الأسلوب

بالصبر، قد لا نرى بأمّ أعيننا تحرير فلسطين لكننا سنفرش الطريق للأجيال القادمة التي حتما ستُنهي وجود الكيان على أرض فلسطين الكنعانية...

كانت تتكلم كقائد عظيم تضخمتْ الثورة الطاهرة بداخله.. أدهشتني طاقاتها وهي تبذل كل جهد لديها لتثقيف المعتقلات.. في كل مرة كانت تفاجئني بما تحمل من ثقافة. أخبرتنا ذات جلسة بأن الحركة الصهيونيّة أقامت الكيبوتزات والموشافات لكي تخلق ارتباطًا بين اليهود والأرض عن طريق ممارستهم للزراعة بعد أن كانوا تجارا وصيارفة، قيام هذه التعاونيات كان حتميًّا لقيام دولتهم. لقد فتحتْ أذهان الكثيرات على حقائق لم يعرفنها قبل دخول المعتقل.

سنهزمهم يومًا لأنَّ مجتمعهم مليء بالتناقضات والخلافات، ذلك لأنهم مزيج من شعوب مختلفة، كلّ منهم يتكلم لغات مختلفة أيضًا، عادات وعقائد متعددة، توحدهم أهداف عسكرية توسعية، فشل الكيان الصهيوني بتوحيدهم ودمجهم جغرافيا.. إنّهم يتمنون الموت لبعضهم عند اشتداد أول خلاف بينهم، فمرة سمعتُ أحد اليهود الشرقيين يقول، وقد تشاجر مع يهودي آخر من الاشكيناز (حبذا لو أنهى إيخمان عمليته). أراد بهذه المقولة الإشارة إلى مقتل اليهود الأوروبيين في ألمانيا وأوروبا الشرقية على أيدي النازيين، أي لو أنهى إيخمان على جميع الأشكيناز. فما هم إلا مجتمع مفكّك، لكن الصهيونية وأهدافها جمعتهم للقضاء علينا. قامت دلال بعقد جلسات ثقافية وفكرية كثيرة، فصلتْ بين ما تتلقاه الأسيرات الجديدات والقديمات. كانت هذه الجلسات تُعقَد بشكل شبه يومي. باتت غرفة المعتقل مدرسة للثورة يتخرج منها جيل قادر على الدفاع عن قضيته

عن علم ودراسة وفكر. بينما كانت إدارة السجون تتأمل أن تكون المعتقلات أدوات للموت، لكننا أثبتنا لهم العكس.

كنت أتمنى الانتصار على نفسي ولكن كان دائما ما يحدث العكس، لأنّ الانتصار على النفس أصعب بكثير من الانتصار على الغير إلّا إذا قام أحدهم بتزويدك بالسلاح، كانت هي من زودتني بجميع الأسلحة اللازمة للانتصار....

بيضاء، قصيرة القامة، هزيلة الجسد، جميلة كما أهل نابلس، تربط الكوفية على رأسها....

دلال.....

شعب لا عهود له

(2)

في 14 أيار لعام 1948 أعلن بن غوريون قيام دولتهم المزعومة، فأطلق كل منا العنان لمخيلته ترصُدُ دخول القوات العربية إلى فلسطين بعد خروج القوات البريطانية منها. كانت مخيلتنا ترسم على رمال آمالنا الجيش اللبناني يدخلها من الشمال إلى الجليل. ومن مرتفعات الجولان كنّا نأملُ أن تدكّ القوات السورية أبواب كيبوتز دجانيا. ومن الشرق ستُدمّر القوات الأردنية مستعمرة أتزيون، ثم تحتل القدس. والقوات العراقية ستجتاز نهر الأردن. والمصرية من الجنوب ستصل إلى تل أبيب وتمحو الكيان الصهيونيّ للأبد. وكنا في الحقيقة نحن من ابتعد وامّحى عندما ذرّت رياح الخيانة رمل آمالنا. فقسم من عائلتي نزح إلى الأردن، وآخر إلى لبنان وما تبقى سافر تحت التراب في رحلة أبدية لا رجوع منها. زوجي استشهد وهو يقاتل مع المقاومة، لم نرزق بأطفال، اعتزلت الناس إلى أن جاءت تلك الليلة التي لم أستطع أن أغمض بها جفن، فقد أصابني الأرق حتى مللت الفراش. سحبت جسدي وخطوت نحو الخزانة. أخرجت عودا كان لا يفارق زوجي في سهراته، صنعه بنفسه من خشب الجوز. أذكر بأنه ظلّ يعمل عليه لأكثر من خمسة أشهر. عائلته تعشق الطرب والغناء في بلد الثورة التي صنعت الرجال وخرجتهم إلى ساحات القتال حين استحل اليهود دماء شبابنا وأعراض بناتنا.

كنت أداري عليه، فقد دثرته بعد موت زوجي بقماشة تحمل لون سيقان شجر الجوز، وكأني بذلك أعيده إلى حضن أمه حيث كان، إلى المكان الذي

ولد وكبر به، أزلتُ القماشة بأناة حرصًا مني على عدم خدشه، أخرجته، أمسكته بيديّ، ابتسم لي وثم عاتبني على الهجران، فاعتذرت له، وسرعان ما بدا الرضا على قسمات وجهه، فقد كان طيبًا كصاحبه، كأنه اكتسب صفاته من العشرة الطويلة معه. سحبتُ رفيقته الريشة وبدأتُ أعزف، أدندن، وكنت قد تعلمت العزف من زوجي، سمعت ضحكات الأحبة وأحاديثهم وكأني بهم وقد حضروا جميعهم واجتمعوا حولي. فجأة تبعثرتْ السهرة وفرّ العود من بين يديّ، تبعته الريشة، على أصوات فزعة مختلطة لعيارات نارية، نباح كلاب وصراخ أوراق الأشجار النائمة على أرضية الحديقة بالقرب من نافذة غرفة نومي، أزحتُ الستارة بحذر دون أن أشعل أية إنارة، نظرتُ بخوف نحو الخارج وعلى ضوء أنوار القمر الخافتة التي كانت تغازل الأرض، تمكنتُ من تمييز كتلة تائهة تتخبطُ ولا تعرف إلى أين تمضي تزحف على أرضية الحديقة، وخوفها يزحف أمامها كأنه دليلها الأمين ونسيج العنكبوت وحمامة السلام بعشها على باب غارها المكين. تناولتُ الروب المعلق على المشجب ولا أدري كيف ارتديته مع كل هذا الارتباك، سحبتُ مسدسًا كان لزوجي وانسللتُ من الباب الخلفي للمطبخ وكان الأقرب للحدث، لم أبذل جهدا في البحث عن تلك الكتلة المتحركة المتخبطة، فلم يكن ليتمكن من الابتعاد بسبب الإصابة التي كان قد ربطها بكوفيته البيضاء حتى لا تفضحه الدماء فتكون كالمخبر، ولم أكن لأتمكن من تحديد خطورتها ومكانها بعد.

أخفيته في غرفة كانت سابقًا مخزنًا تحت الأرض لمعمل صغير للصابون النابلسي كان زوجي قد ورثه عن أبيه، أغلقتُه وكانت تلك هي المرة الأولى التي أفتح بها باب المعمل بعد موته. جلبتُ حقيبة الإسعافات (وكنت قد مارست مهنة التمريض في شبابي). بعد أن تأكدتُ من ذهابهم عالجتُ

جرحه الذي كان سطحيًّا، فالرصاصة كانت رحيمة به إذ إنّها لم تتجاوز أكثر من سنتمترٍ داخل عضلة ساقه على حسب تقديري.. لكنّ الغريب في الأمر هو كيف استطاع هذا الثائر الصغير تلك الليلة الإفلات من رشاشاتهم وتجاوز الأسوار العالية حول المنزل بتلك الساق الجريحة.. قال لي بعدها بأنه كان أمام فتحة ربما قامت الأقدار بحفرها بعد أن أتى عليها الزمن وأضعفها.. إنها ألطاف الله بهولاء الأبطال. ومنذ ذلك الوقت وأنا أعمل معهم فآوي المطلوبين منهم وأقوم على معالجة المصابين، وكم من اجتماع عقد لهم في بيتي إلى أن أتى ذلك اليوم حين وشى بي بائع الحليب الأحدب إلى السلطات، عندما شكّ الخبيث في كمية الحليب التي

كنت أبتاعها منه أحيانًا. لم أشك به يوما، وكيف أشك بعجوز تجاوز السبعين إحدى عينيه يتدلى جفنها عليها بثقل فيمنعها طيلة الوقت من الرؤيا. فطالما أمسك الجفن ورفعه بأصبعيه لتظهر العين الغارقة في العتمة حتى يتأكد من عدد الليرات التي أقدمها له ثمنا للحليب....

وبقي آخر دلو للحليب على طاولة المطبخ دون أن يُمسّ..... فكم من الدلاء بقيت خلف أصحابها وجفّ دمعها من الغياب؟؟؟

يتقنون معادلات الاضطهاد

ويخترف معادلات الصمود

(3)

سحب الليل نفْسه ببطء من بين أصابع الوقت كما ينسحب البرغي من قطعة خشب منتفخة وحلّ مكانه النهار بسماء يبدو بأنها رمادية لثقل الضوء وقتامة وجه الكون. أخذ المطر بالانهيار بشكل هستيري عندما نفضتُ الخوف عني وتمالكتُ نفسي. سحبتُ جسدي عن الأرض..

إجلسي.. قالها بصوت عالٍ.. جلستُ وانطلقتْ مني ابتسامة ساخرة حينما تذكرتُكَ، أوقفتَ السيارة في منتصف الطريق. هل هذا وقت ولادتك يا حياة؟ بالله عليك ألم تجدي أنسب منه؟.. أجبتك وقتها.. وهل هو مشروع كنتُ قد خططتُ له من قبل يا ناجي؟ من الظاهر بأن حنظلة (وكنا قد قررنا تسميته حنظلة عندما علمنا بأنه ذكر) أحبَّ الخروج إلى الدنيا في مكان كهذا.. فتقول وأنت تخرج بساطًا من دبة السيارة.. هنا وعلى الطريق العام وبعيدًا عن أي مستشفى؟ هل تظنين بأنني قابلة؟.. فأقهقه بالرغم من وجع المخاض الذي لم أجرّب أكثر منه إيلامًا.. هو من اختار، ربما ليقول لهم هذه أرضي وسأولد بعيدا عن رائحة المخدر وأدوات التعقيم، ها أنا أسنشق رائحة بلادي..

ها نحن يا حياة ادفعي.. ها هو الرأس يخرج.. ياه يبدو بأن رأسه كبير لا بدّ بأن يصبح مهندسًا في المستقبل... أصرخ ألمًا.. وهل قررت بأن يصبح مهندسًا هه؟.. اِدفعي أكثر، أكثر، لم يبقَ سوى القليل.. اِفرحي يا حياة ها هو حنظلة يستنشق هواء فلسطين من غير منّة، ها هو يرضع حبّها وسيكبر ويصبح مهندسًا. تأخذه بين ذراعيك وتقبله بالرغم من الدماء التي كان

جسده الصغير لا زال سابحًا فيها، تدثره بجاكيتك ذات اللون الأسود، وكم كنت أحبها عليك... تضعه في السيارة ثم تحملني.. هيّا ضميه إلى صدرك.. تنطلقُ بالسيارة دون أن تضغط مكابحها ولو لمرة واحدة إلا أمام المستشفى لإكمال عملية الولادة..

بهذه الذكريات تحديتُ إرادة ذي الذقن الطويل، فكانت كحبة مخدر ابتلعتها للتو، حلّق جسدي في الأثير البعيد، انتشلتني يدك لئلّا أسقط في أتون الواقع المرّ والاستسلام له.. رمقني بحنق وانقضَّ عليّ، صفعني ولعله أدار حنكي من قوة الصفعة.. جبان.. ضمرتُها في نفسي. انزلق خيط رفيع من الدم من جانب فمي بصقته جانبًا وقهقهتْ. فكّ حزام بنطاله وأنزله، أخرج عضوه الكبير هكذا بدا بالرغم من ارتخائه، ربما لو كان صغيرا لما فكّر في إخراجه، أمسكه، صوبه نحوي وأفرغ بوله الأصفر النتن على ملابسي، وأنا صامتة، لا بدّ بأنه مصاب بعقله قلتُ في نفسي، تقيأتُ عدة مرات وسعلتْ، أدخل ذلك الشيء المقرف وهو يظنّ بأنه قام بإرضاء غروره، انقض علي وأخذ يضربني بالهراوة بعد أن سحبها من يد أفرايم، سقطتُ أرضًا وأنا أحاول تلقي الضربات عن رأسي بكلتا يدي.

دار الدراويش في حلقات ذكرٍ في حيّ المغاربة بالقرب من حائط البراق، قابلها اليهود من حركة بيتار المتطرفة بالنفخ بالبوق كأفعى تبخ سمومها لئلّا تنفجر، وهنا يا (ستي) وقعتْ المشاجرات بين اليهود والمسلمين.. بين اليهود والمسلمين.. يهود.. مسلمين... قبلتني ثم احتضنتني... لم يتجاوز عمر أمك العام عندما كنتُ أحملها والفرحة لا تسعني، أسير إلى جانب جدك في بناية بيضاء فخمة للأوقاف أسفل شارع جوليان، كان الظلام قد حلّ وسماء القدس مضاءة بفعل الألعاب النارية، بهلوانات، سيرك، بوظة

عربية، حقائب جلدية من مصر، حرامات صوف من العراق، فاكهة مجففة من دمشق، صابون من نابلس والكثير الكثير يا (ستي)، عندما عدنا للبيت كنت أحمل في قلبي قبل يديّ أجزاء من رائحة إخواننا في العروبة. كانت أيامًا سعيدة. لكن لا شيء يكتمل (خليني أخرفك خريفية يا ستي، اسمعيني منيح وحطيها براسك).. (يمّا أنا خايف) صرخ خالك والتصق بي بعد أن انقطع التيار الكهربائي، أجبته. (يمّا) هذا صوت الرعد ألا تسمع بدأ المطر ينهمر (متخافش يا حبيبي)! والحقيقة أنه لم يكن في الخارج أي صوت لرعد أو مطر غزير كما ادعيتْ، بل إنها عصابة الهاجاناه، فهي من قامت بقطع الكهرباء. الله يسامحني كذبات كثيرة أطلقتُ العنان لها لتنطلق من لساني كي أزيل الرعب من قلوب الأولاد، صوت الرعد كان في الحقيقة صوت القنابل التي أُلقيت على بعض البيوت، وصوت المطر ما هو إلا صوت الرصاص المنطلق من رشاشاتهم، أرادوا إرعابنا لإرغامنا على ترك بيوتنا عندما رأت عصابة الهاجاناه بأن اليهود بدأوا بالفرار من بيوتهم التي كانت ملكًا لعرب القدس، (شايفة يا ستي الظلم) رأت العصابة بأنه من الأولى أن نخرج نحن..

(بس انتو أبطال يا ستي مشان هيك ما طلعتوا من البيوت..)

قبلتني.. نعم يا حبيبتي برغم خوفنا ويأسنا ونفاد الموؤنة إلا أن جدك رفض ترك بيتنا يشكو الوحدة من بعدنا، وقال.. لن أترك بيتي يبكي خلفي أو يشكو الوحشة مع الأغراب حتى لو هدموه فوق رأسي. لن أترك ما هو لي. لكنه ترك لنا خيار المغادرة أو البقاء فاخترنا طبعا البقاء، ولا أعرف كيف تمكنّا من البقاء على قيد الحياة تلك الأيام الصعبة؟ تنهّدتْ وكأنّ

الأحداث تمرّ عليها للتو وتابعت.. كان يا (ستي) المسؤول عن عملية الإخلاء والتوطين المزدوجة الملعون بن غوريون...

آآآه يا (ستي) لو عرفت ماذا قال بعد انتهاء تلك العملية، الحمد لله بأنك لم تكوني قد ولِدتِ بعد ولم تسمعيه وهو يبخُّ الكلمات من فمه (من مدخل القدس مرورا بلفتا وروميما، لا يوجد هناك عرب، مئة في المئة يهود، منذ أن دمر الرومان القدس لم تكن المدينة يهودية مثلما هي الآن).

(إكتبي تاريخنا لمن بتكبري، إكتبي إنو كان فيه شعب هون اسمه فلسطيني دفع روحه فدا لفلسطين، إكتبي كل شي وخلي الأجيال اللي لسا مانولدتش تعرف شو صار) في تاريخ 6 نيسان لعام 1948 بدأت الهاجاناه تنفيذ عملية نحشون بهدف فك الحصار عن يهود القدس وكانت ضمن خطة سميت ب دالت التي بدأ التحضير لها عام 1944، كم هو نفسهم طويل! أربع أعوام يعملون على خطة كان هدفها توسيع الحدود التي خصصت لدولتهم المزعومة! هل هنالك خزي أكبر من هذا؟ لو تعلمي أيضًا ماذا قال بن غوريون عندما كانوا يناقشون أمر هضاب وجبال القدس وبأنهم لن يكونوا قادرين على الاتصال بها إلا إذا سيطروا على جبالها، فاعترض أحد الحضور قائلاً بأننا لا نملك أراضيَ هناك، عندها بادر بن غوريون قائلاً (الحرب ستعطينا الأرض، إنَّ مفهومَي (لنا) أو (ليس لنا) هما فقط مفهوما سلام فقط وفي الحرب يفقدان معناهما بالكامل). وكانت القدس هي مفتاح الموقف العسكري لأنّها تقع على أعلى قمة في السلسلة الجبلية. فهل هناك مهانة أكثر من ذلك يا (ستي) إنها بصقة في وجه العرب وقد تلقوها بكل رحابة صدر؟ وأي خزي ذاك، عندما

تعهد فوزي القاوقجي قائد جيش الإنقاذ لعصابة الهاجاناه بأنه لن يهرع إلى مساعدة قوات عبد القادر الحسيني وهو يحاول استعادة القسطل؟

قبلتني مرة أخرى، وتابعت.. بعدها يا (ستي) سقطت جميع أحياء القدس حتى إنَّ أصحاب البيوت تركوا طعامهم على مواقدهم فتفحمت من بعدهم، كل هذا والعرب يتفرجون وبعضهم كان يصفق بكلتا يديه وبقوه لأنه كان ينتظر حصته!!

(خليني أخرفك عن أبو حنيك يا ستي) هذا البريطاني قائد الفيلق الأردني، الملعون الذي منع ضباطه من القتال وجعلهم في موقف دفاع عن القدس فقط! وعندما عصاه البعض قاموا بشنّ هجومٍ على دير نوتردام، ثم قصف الجامعة العبرية، فتدخلتْ عندها الأم الأقوى للصهيونية، أميركا، ومن يستطيعُ الوقوف في وجهها؟ فانسحب الجميع ولم ترجح كفة العصيان مقابل كفة الطغيان، ذهبنا وقتها في شربة ماء بسبب الخيانة وهدنة لمدة ثلاثين يومًا...

شدتني إليها بقوة، قبّلتني، شعرت بدفئها، تكورت على نفسي أكثر والتصقت بها، يااااه ما أدفأ حضنك يا ستي. أكملتْ وهي تمسحْ دموعها بطرف ملاءتها. وفجأة رنّت ضحكتها بقوة، نظرتُ في عينيها وكأنّي أستحثّها لتحكي ما في جعبتها. احمرّت وجنتاها عندما بدأتْ تقصّ ليلة اصطحبها جدي وكانت وقتها عروسًا في أول أيام زواجهما إلى سينما إديسون، قهقهتْ وهي تصفُ لي أحداث فيلم نينوتشكا الكوميدي وجهدتْ وهي تصف جمال بطلته غريتا غاربو السويدية ذات العينين الجميلتين.. قلتُ لها: لا يوجد أجمل من عينيك يا (ستي). سحبتْ صورة فوتوغرافية، قبّلتْها قبل أن تمدّها إليّ ثم قالت هذه الصورة أصغر مني

بقليل يا (ستي)، كان يوم عيد الفطر، حين اصطحب أبي العائلة إلى خارج باب الخليل في شارع يافا حيث يقع ستوديو فوتوغرافي لمصور أرمني اسمه كرابيد كريكويان وكان قد افتتح عام 1885، أشارتْ بسبابتها إلى أمها التي أضحتْ هي وأبوها مجرد شخصين على ورق، لكن روحهما محفوظة في ذاكرتها. انزلقتْ دمعة على الصورة فانزلقتْ معها ذكرياتها دفعة واحدة، قالت: ساحة الخليل هذه يـا (ستي) كـانت تضج ذلك اليوم بالحياة، ارتسمتْ أمامي وهي تصف ذلك المشهد، جيـاد تجرّ عربات، مسافرين، وافدون من يافا وبيت لحم، أوتيل فاست، مكتب سفريات كوك، كانت لوحة من أجمل اللوحات التي رسمتها مخيلتي. مـا أجملك يـا (ستي) ضحكتْ وضمتني إليهـا مرّة أخرى وأخذتْ تقبل رأسي وتهزني بفرح، فرحتُ معها وضحكتُ، وفي عزّ فرحي وسعادتي انتزعتني صرخة قوية ترافقت بعبارة كريهة..

قومي يا حيوانة..

نظرتُ إلى الأعلى، كانت أضواء خافتة تنبعثُ من المصباح المتدلي من السقف وقد بدت كأنها ترتجف وتنتظر حدوث شيء ما، قضمتْ الوقت كما فعلتُ أنا، لكن ببطء شديد كسلحفاتين.. بدتْ لي ألوان وجهه وهي تتقلب ما بين الزرقة والحمرة والصفرة، أمّا انفعالاته فكانت ما بين مدّ وجزر وكأن إدارة السجون تعمدتْ اختياره ليكون بكل هذا الفصام المعجون بالكثير من الخبث، كان يتقن فنّ القمع وفنّ القتل الصامت من غير إطلاق رصاصة واحدة. والطريقة سلسة للغاية وغير مكلفة، يكفي أن يتسببوا بإيصال نفسية الأسيرة إلى حالة شديدة من اليأس والقنوط من

الحياة حتى تقدم الواحدة منهن على الانتحار.. طريقة رخيصة، لكنها ليست بأرخص من بعض المعاهدات.

راقبتُ يديه النحيفتين وأصابعه الطويلة تتعانقُ وتتحركُ بشكل لافت كأنهما في حلبة مصارعة تَصدر منها فرقعات تَكسِر الصمت الذي ران على جو الغرفة. توتر واضطراب بدوا عليه واضحين لا بدّ بأنه يحمل في رأسه الكثير من الضجيج! فجأة ومن غير سابق إنذار انفضّت حلقة المصارعة وسحب يديه نحو رأسه، ضغطه بقوة حتى شعرتُ بأنّ صندوق رأسه سوف ينكسر لو لم يكفْ.. سحبَ يديه، ارتخى الرأس وكأنما غدا صريعا بين كتفيه الضيقتين، ثم ما لبث أن انتصب ووقف على رجليه وقرّب وجهه مني..

اعترفي يا حيوانة من الذي دبَّر حادثة تفجير الثلاجة المعبأة على الأقل بخمسة كيلو جرامات من المتفجرات في ساحة صهيون بتاريخ 4 يونيو؟؟ اعترفي بأنك تنتمين إلى تلك المنظمة التخريبية.

سحبتُ جذعي للخلف بعيدًا عن رائحة أنفاسه التي لا تقلُّ نتانة عن رائحة بوله..

لا أعرف...

لن أعترف بشيء لم أفعله ولن أكون تلك السمكة التي تلقي بنفسها في مقلاتك الحارّة، وإن أردتْ أطلِقْ على صدري رصاصة وأرحني.

صفعني للمرة الثانية وكاد يُغشى علي... قرّب وجهه مني للمرة الثانية: إنّ الموت سلعة نادرة صعبة المنال لمن يسعى خلفه! قالها وكان كل تعبير من تعابير وجهه ينطق بكثير من الاحتقار، التكبر، الازدراء.. فجأة وثبت من عينيه نظرة كريهة فيها ما يكفي من الحقد، الكراهية والتمييز العنصري،

رددتُ عليها بواحدة أقوى وأعدتُ له الصاع صاعين، عندها تدحرجتْ نظرته صرعى خاوية لا حياة فيها، شعرت حينها بلذة الانتصار..... وقف أمامي وكانت وقفته تشبه السرعوف وقال.. إنّ حدسي لا يكذب أبدًا، فمن الممكن إدراك خصوصية الشيء عن طريق الحدس. ستعترفين يومًا حتى لو التجأتِ إلى أجوبتك الملتوية ظنًّا منك أنّك ستتمكنين من مخادعتي. ثم إنك لا تدركين شيئا كمن يعي الخــطر الذي يداهمه ثم يقابله بعدم الاهتمام، فما فعلتك هذه إلا انتحار من نوع سيِّئ.. هزّ رأسه مرارا.. ستعترفين..

صرخ.. تعالوا خذوا الحيوانة...

قبل دخولي المعتقل كانت رؤيتي رمادية يغشاها ضباب كثيف، فلم أكن متأكدة من صمودنا للنهاية في هذا المعترك، أمّا الآن وبعد احتكاكي اليومي بهم ومن خلال تحقيقات ذي الذقن الطويل المتكررة، أدركت بأني أشرف بنفسي على تلك الهوة التي تتمركز في نفسياتهم، فقد قستُها جيدًا وسبرتُ غورها كإنسانة متمرسة، عرفتُ من خلالها أننا لا بدّ سنحرر أرضنا يومًا....

لو استطعنا معرفة الشخصية الحقيقية للأيام
لكُنّا تجنّبنا صفعاتها القوية

(4)

كان النهار قد حمل أضواءَه ورحل، وحلّ الظلام بصمته عندما أعادوني من غرفة التحقيق.. دخلتُ.. مساء الخير يا صانعة الألم، أيتها الصلفة، التمثال النزق، أيتها المتناقضة. أسبلتْ الجدران عيونها كمذنبة وغدتْ بلا ملامح.. آه لقد جرحتُ شعورك!.. يا قطة الشوارع، أيتها التائهة في زمن الحروب وعند أقدام التاريخ أتعلمين! بأني سوف أغدو مثلك عندما يموت ذلك الشيء الذي بداخلي، ذلك الذي يحمل تلك الذاكرة الورقية. أتذكرين عندما قلتِ لي ذات مرة إنه المنطق!! فأجبتك.. إن المنطق الذي يتشدقون به على (بوز كندرتي) فمنطقهم مات منذ زمن، منذ أن استسلموا وسلموا وتمسكوا بالكراسي وتركونا وقالوا.. حلوا قضيتكم بأنفسكم! أضاعونا عن قصد في مخيمات الأونروا وطوابير وكالة الغوث، نسعى خلف حفنة طحين ممزوجة بالكثير من الذل نخبزها على نار قهرنا. فأيّ منطق هذا الذي ينتزعنا من جذورنا. يلقي بنا مهشمين، مهمشين في أوطان ليست لنا، حتى أصبحنا كزوائد لحمية غير مرغوب بها. استحدثوا لنا أوطانا اصطناعية من غير جذور، فإذ بنا نشكو العطش دون أن نموت، يتراكم علينا غبار القهر، نختنقُ وتبهتُ ألواننا، سماؤنا مظلمة لا شمس لها.. ثم أخبريني هل شاهدتِ الميناء يومًا كما شاهدْتُه أنا؟ يحدّقُ بحزن ويذرف ألف دمعة، وهم يتراكضون نحو الطوافات حاملين بأيديهم وعلى رؤوسهم ما أمكنهم حمله؟ هل يا ترى غدا الميناء أقوى، ألأنه لم يغادر؟ لم يسافر؟ لم يحمل حقائبه ويبتعد!! إلى أين ترحلون؟ كان يصرخ بهم!

يتجاهلونه، يُغرِقُ طوافاتهم ويحتفظ بهم قريبا من قلبه، إلى أن أتى اليوم الذي اكتشف الميناء حقيقة الأمر، فكم مرة راقبهم من بعيد؟ ناح على فراقهم، لكنه لم يعد يعاتبهم أو يغرقهم كما قبل، فهل أصبح يتقن مهنة التهريب؟ يجدّد لهم جوازات سفر مع الحياة من موتٍ لم يكن طبيعيًّا كأيّ موت، بل إنه الموت المترافق بالشماتة. صرختُ بالجدران المسكينة، هل شاهدتِ ما شاهدْتُه أنا؟؟؟

هزتني دلال ما بك يا حياة؟ لمَ تصرخين؟ انتبهتُ من غفلتي، وإذ بصوت يتسربُ إلى قلبي. كان أحدهم يعزف على شبابته، والنزيلات يتجمعن حوله وقد شكّلن حلقة مكتملة فلم أتمكن من معرفة من يكون! من يا ترى هذا الذي بعث الأمل في نفسي؟ من ذا الذي أعادني إلى صباحات العيد حينما كان أبي يحضرُ الأضحية من سوق الجمعة الذي كان عادة ما يقام إلى الجنوب من طريق ماميلا، ماميلا (تعني بالعربية مأمن الله، حتى الحروف تشقلبت في زمن الحروب) الحي الذي كان يضج نشاطا. وقد شُيّد خارج أسوار المدينة القديمة نهاية القرن التاسع عشر، حيٌّ تجاريٌّ أقيم فندق الملك داوود على أحد شوارعه وهو شارع جوليان. من أعادني حيث باب الخليل حينما كنت أرافق أبي إلى محل السمك الطازج القادم صباح كل جمعة من يافا حيث يصل بالقطار عن طريق سكة الحديد. كانت جدتي قد حدثتني ذات مرة عن هذا الخط الذي كان يربط بين القدس ويافا، وقد أنشِئ عام 1892، وكان يستخدم لنقل الحجاج والمسافرين، ثمّ استخدم بعد ذلك لنقل البضائع. آه يا قدس اغفري لنا ما هو ليس بأيدينا فليتهم قاموا بتقطيعنا قبل أن ينتزعونا منك. لكنها النكسة الملعونة، حرب الأيام الستة، طُردنا ثم استُبعدنا إلى مخيم شعفاط وكانت وكالة الغوث قد قامت ببناء بيوت للنازحين هناك. مخيمي الحبيب شعفاط احتضنتنا عندما

قذفوا بنا نحو العراء، قدمت لنا ما استطعت تأمينه، أحبك، أشتاق إلى رائحة ترابك ووحلك إلى جميع تفاصيلك. ابتسمتُ، ضحكتُ، سعادة لا توصف تلك التي غمرتني فأحاطتني هالة من الفرح العتيق... من يا ترى أعادني ببكاء شبابته إلى تلك الأيام؟ ظللت أترنم على صوته إلى أن دخل ذلك الملعون وبقلب بارد انتزع فرحتي بعد أن قام بكسرها، ثم شتمها، كما شتم دولته الجديدة، بلاد العسل واللبن متحسرًا على بلاده الأوروبية. يبدو أننا منذ أن حلم هيرتزل بنا أصبح لا بدّ لكل لحظة سعادة مسروقة من الحياة بأن يقابلها أضعافها من لحظات التعاسة!!

كانت ترعى الغنمات مع زوجها الختيار كما كانت تنعته، وفجأة اقتحم الجنود المرعى، كبلوها، واقتادوها بعد أن جاءتهم إخبارية بأنها تنقل الطعام والماء إلى الثوار... من يا ترى أخبر عن هذه المرأة الأمية التي بالكاد كانت تحفظ بعض الأحرف، كل ما كانت تعرفه أنّ اليهود أنذال، سرقوا فلسطين، إذن أقنعني يا ناجي كيف لامرأة كهذه أن تكون هنا؟

كحطبة، سمراء لوحتها شمس بئر السبع

(5)

قال لي الختيار ذات مرة (راسك كبير عالفاضي) عندما سألته لما يفتح حمارهم فمه عندما يلمح حمارة الجيران..

كانت زوجة أبي (تملط) رؤوس الدجاج وأنا أجلس بالقرب منها.. فأُبادِرها ببراءة طفلة.. أمي كانت تحز رؤوسها بالسكين يا خالتي... تقذفني بأقرب حجر تقع يدها عليها وتُتبِعني شتيمة. نعم أنا مقبولة التي قال عني الختيار (راسي كبير عالفاضي وفارغ كمان) كان هناك من هو برأس فارغة أكثر مني..

كثيرا ما كان أبي يشتم أمي ويتبعها بصقة طويلة، (حتى ولد ما قدرتي تجيبيلي تفووو عليك يا قصبة الصيد.)

أنجبتْ أربع بنات لم يُكتب لأيّ واحدة منهن الحياة. كنت الخامسة والأخيرة ولا أعرف كيف نفذتُ من مقصلة دعوات أبي. (الله يكصف عمرها) كان يقول بعد كل ولادة لأمي عندما يسمع بأنها أنثى.

كانت زوجته الجديدة بردفين ممتلئين وصدر مكتنز، بشرتها ناصعة البياض، لم تكن بالجميلة بل إن أمي أجمل منها، إلا أن الرجال في الليل حين يطفئون الأضواء لا يهمهم الوجه بقدر ما يهمهم أن يملأوا أيديهم باللحم الذي يزيد من هيجانهم كلما زادت كميته هههههه علاقة طردية بحسب قوانين الفيزياء.

قدِمتْ برفقة أبيها ذات صيف. استقروا في قريتنا، سمعتُ الرجال يتهامسون بأنه تم إجلاؤُهم مع بقية الأقارب وفقًا لتفاهم عشائري بسبب عملية قتل ارتكبها أحد أقاربها. كانت الخبيثة محط إعجاب الرجال. طبعا من ضمنهم أبي. نبتت حواجز بينه وبين أمي بعد أن كثرت زياراته لبيت زهرية حتى (طكت إمي وماتت) كما كانت الجدة حلوة تقول.

بكيتُ كثيرا عندما بصق بوجه أمي. فتتشبثُ المسكينة بصمتها، لأنّ بداخلها بوحٌ أخفته، لو همستْ به فلا بدّ بأن يجرح حنجرتها. لذلك كانت دائما تتلقى مسباته وتلوذ بالصمت. كم مرة سمعتها تشكو همّها للجدة حلوة. لا بدّ بأنها الآن تنام مرتاحة تحت التراب. لا أعلم هل كان أبي بالفعل يحب زهرية السالم أم أنه أحبّ طراوة جسدها في الفراش، بل وكثيرًا ما خطر لي.. هل من الممكن أنْ يبقى الحبّ وتلك الطاعة لو أصابها الشلل يومًا وعجزتْ عن إشباع رغبته؟ هل سيلتفتُ إليها؟ إلى ذلك الجسد الذي يشبه الجمر المختبئ تحت الرماد ما أن تحركه حتى يتّقد بقوة جنونية؟.. نعم لقد كانت زهرية كالجمر المختبئ تحت رماد منطفِئ، فما أن يختلي بها حتى أسمع عواءها. تلك الملعونة التي تبقي على النافذة مفتوحة قصدا منها، عواءها الذي لم يكن حتى الدجاج النائم في خمه والأغنام في حظيرتها تسلم من شره فتقوم القيامة هناك بين الذكور والإناث، والحمد لله أن كانت بيوت الجيران بعيدة وإلا لحصل بينهم ما حصل في خم الدجاج وحظيرة الغنم.. ابنة الكلب لقد كانت تتقن ذلك الفنّ، وهذا ما كان يجعل أبي يجري خلفها كالكلب، دائم التمسح بحذائها بل إنه كان مستعدا أن يلعقه من أجل رمشة رضا من عينيها..

اليوم التالي لدخلتها أدهشني ثوبها المطرز بالأصفر، الأحمر، الأخضر وألوان كثيرة ساهمتْ في عمل مهرجان كبير على صفحته السوداء. سال لعابي (وتلمظتُ) عليه.. ثوب جميل يا خالتي قلت لها. حدّقتْ بثوبي الملوث، باهت الألوان وشعري المجعد المنكوش، فأسرعت إلى قطعة من الشبّة وقد كانوا يحرقونها فوق رأس من يُعتَقَد بأن عينا أصابته، أحرقتها فوق رأسها وأسرعتْ لتريها أبي.. ابنتك تحسدني على ثوبي. أعلم بأنه لم يحبني يوما، لكنه لم يضربني بحياته مثلما فعل ذلك اليوم. كان أمامها كالحمار الحرون الذي يعجز عن مواجهة حفرة.. نعم لقد كانت زهرية السالم كالحفرة أمام جبروت أبي.

كم تمنيتُ أن أدلفَ إلى أحشائها، أمزقها حتى الموت. ثم أجلس بقربها أحرسها من السباع، فقط لأستمتع وأنا أراقب الديدان تنهشها شبرا شبرا، ثم أقول لها أنظري لنفسك يا زهرية السالم كم أنت مقززة ضعيفة لدرجة أنك لا تستطيعين دفع أحقر المخلوقات وهي تنهشك وتستمتع بطعم لحمك... وفجأة بمممممممم وإذ بذلك الخيط الأحمر يسيل نزولاً من بين خصلات شعري على جبهتي الملطخة ببقايا رماد وأوساخ لم تُغسَل بعد لعبٍ مع الأولاد طوال النهار.. إنّها زهرية الظالمة (بنت الحرام فشخت راسي الله ينتكم منها) أمسح الدماء بطرف ثوبي فترتسم على جبهتي لوحة عنوانها.. هذا حال من ليس له أم..

(ما أطول عمرك يا ملعونة، اركضي هاتي مية من البير لحتى أنتف الديك لتتزهرمي إنت وأبوك)

أنتفضُ كممسوس، أرقصُ من الخوف، أتعثرُ لخوفي من أن تكون زهرية قد اكتشفتْ ما كنت قد تخيلته قبل لحظات، أرتجفُ كقصلة في حقل

بارد، أحمل الدلو أتجه به نحو البئر، أقف فوقها، أرى صورتي المنعكسة على صفحة الماء وقد وتّرها الخوف واصفرّ لونها، أُمسك الحبل، أقوم بفكّه أنزله للأسفل، يلتهمه الظلام، أنظر خلفي لأتأكد من أن زهرية لم تأتِ لتدفع بي داخل البئر، أسمع صراخها من بعيد: (هاتي الميه يا مكصوفة الرقبة لليش تأخرت).

أرتبك، أسحب الدلو أصبه في دلو آخر، أسرِّع من خطواتي.. الحمد لله أقول في نفسي زهرية لم تدفع بي نحو البئر المظلمة التي تسكنها عشرات الأساطير المخيفة. أحلف بأني لن أكرر ما تخيلته وما تمنيتُ حصوله لزهرية، لخوفي من أن تسطو حتى على خيالي....

كانت رائحة شوربة الديك البلدي الذي تُعده في المطبخ تدعوني لتذوقها، حصتي كانت لا تشبع فأرا صغيرا، الرقبة! منها لله (راح طعم الفخذ في نفسي) إلى أن قدموه لي يوم صباحيتي كانت عندها نفسي قد سُدّت لأنني على ما يبدو شبعتُ من رائحته في بيت أبي.

معاركنا خاسرة أمام الوقت

(6)

ها هو نيسان يولد من جديد وتراب الأرض يطلقُ زفرات الحنين، آه منك نيسان كم من حبيب قد سرقت، كم من عبق للوز وألوان للكرز سرقت، وأنا هنا لا زلتُ أرزحُ في معتقلي الضيق. أتنفسكَ من خلف الفتحات الضيقة وأختنقُ برائحتك العطنة التي تحملُ معها رائحة الجثث، الدم، الخوف والارتعاش.

لم يعُد للحياة ألوان داخل هذه الزنزانة النتنة سوى اللون الأزرق المميت برتابته المتَعَمدة، فالوقت هنا عادة ما يكون له رأيٌ آخر، يتحكم بنا، يخنقنا بدقائقه وساعاته، يمتثل أمامنا كمقصلة لئيمة تنتظرُ ضحيتها بشغف. دخلتْ ذات صبـــاح غرفتنـــا صحفيـــة شابة متهمة بعملية اغتيال ضابط صهيوني.

يسألوننا.. لمَ تقدمون على فعل أمور قد تلقي بكم نحو هاوية الموت؟.. فنرد على سؤالهم بأن الإجابة أكثر بساطة مما يتخيلون.. فهناك أشياء لا إرادية تنبثق من الداخل، قل مثلاً من القلب الذي يحمل جميع انفعالاتنا، أشياء لا نقوى على تفسيرها تقودنا دائما وتدفع بنا نحو ما نقوم به، من المؤكد أنه يمتلك جذورا قوية تسحبنا نحوها قد يكون الحبّ، الإخلاص، الوفاء، وقد تكون ثلاثتها مجتمعة في كلمة واحدة.. فلسطين.. كتلة من المشاعر التي تولد فينا، هي فطرة ورثناها من أجدادنا...

سحبتْ جسدها بخطواتٍ متدحرجة نحو فرشتها، سارت بجسد واهن، باعدتْ بين ساقيها كأن شيئا يشدهما بعيدا عن بعضهما، منهكة،

زائغة العينين، ارتمتْ على بطنها، مدّتْ ذراعيها على جانبي جسدها، اختبأ وجهها النحيف أسفل شعرها المتناثر. التصقت بعض خصلاته بجبهتها المتعرقة. صراخ يخرج من أتون هائل داخل أحشائها، يتدفق على جسدها على شكل ارتعاشات متتالية. تنهدت بقوة. تناثرت، حاولت لملمة نفسها، لكنها فشلت. فارتخى الجسد وغدا كحطبة يابسة، جاهزة للاحتراق. لعقت جراحها كطريدة فرّت من صيادها. ارتخى الجفنان وغطت في نوم غير مريح. توزع ما بين تمتمة وأنين. كنت أراقبُ حركاتها عندما قلبتْ نفسها فاستقرَّ الجسد على الظهر المتعب، انكشف الوجه وانعتق من سجن الشعر. بقع زرقاء مختلطة بالحمرة تلون رقبتها...

الأنذال ماذا فعلوا بها..

سمعنا بعد أيام من الأسيرات في الغرف الأخرى أثناء الفورة بأنها اغتُصِبت، وأسقطتْ عدة مرات، قالتْها ذات مرة، إنني امرأة مهترئة...

ترى أي امرأة هي ومن أين لها بكل تلك الإرادة الجليدية؟ هل من الممكن لأي شخص أن يمتلك إرادتها؟؟ رفضتْ الاعتراف على رفاقها في المنظمة، رفضتْ الاعتراف بحرف واحد عن العملية التي كانت شخصيًّا مسؤولة عنها فأي امرأة هي؟؟ كتبتْ بحماس، تنقلتْ بين رفاق العمل، أشرفتْ على مقالة لهذا وقصيدة ثورية لذاك، مؤمنة بأن هذا العدد يحمل في طياته ما يستنفرُ الهمم في الداخل، ويستفزُّ الأحرار في الخارج. لكنها اكتشفتْ بعد أن اعتُقِلتْ وتعرضتْ للتنكيل والعذاب بأنَّ تلك الكلمات على الأوراق ما هي سوى معارك بأسلحة منتهية الصلاحية، فلا من بالداخل سحقوا العدو ولا (ربعنا) في الخارج قدموا شيئا ولو قليلا يريحون به ضميرهم. كانوا وقتذاك مشغولين بالإعلانات الهابطة عن افتتاح سينما

أو تكريم أحد الفنانين (معذورون). وبعد كل هذا ماذا سيفعل الحجر في يد القوي مقابل المدفع في يد الضعيف!! هذه حقيقة، فعادة ما ينتصر الجبان إذا أتاحتْ الفرصة له امتلاك الأسلحة. وما أكثر فرصهم..

ها هي ساعة منتصف الليل تدقُّ بلا عقارب ولا وقت، فالعقارب أصابها العطب والوقت مات وسط زحمة الرتابة، رتابة الحروب، الصفقات السوداء، وربما وسط رتابة قطرات الماء التي تتداعى تباعًا من حنفية الحمام وقد ملّتْ روتين الفتح والإغلاق... وهي لا تزال تئنُّ وتتمتم في نومها... ربما تحلم بالانتصار وربما بالاغتصاب وربما بكليهما معا...

الأمل طرد بريدي

مُعلقٌ بين الوصول وعدمه

(7)

قوَّضَ نعيق الغربان سكون ذلك الصباح، ارتعشتْ أوصالي بعد أن تخيلتُها تحوم فوق جثة إحدى الأسيرات المنتحرات. من أين تأتيني هذه الأفكار السوداوية؟ فكرتُ، أهو تأثير حكايات جدة مقبولة علينا والتي لا تكاد ليلة تخلو منها؟؟....

كثيرة هي حكاياتك البريئة التي أخذتنا بعيدًا وخارج حدود هذه الغرفة الخافتة الإضاءة، الكئيبة بروائحها الكريهة التي كانت تنبعث من المرحاض الوحيد سيئ التصريف بسبب الانقطاعات المتكررة للمياة عن قصد من إدارة السجون، قلّة المنظفات التي يزودون بها الغرف، بقايا فضلات الطعام التي تبقى عالقة بالأرضية بعد الوجبات، رائحة البطانيات التي أظن بأنهم ورثوها من الانتداب البريطاني.. لو تدري يا ناجي لقد غدونا كالأطفال نسعد عندما يأتي الليل ويحين موعد حكايات مقبولة، مقبولة البسيطة التي دخلتْ هنا لا تتقن القراءة أو الكتابة لكنها تتقن ثقافة الأرض وحكمة الجدات، تعلمتْ القراءة والكتابة خلال أشهر قليلة، فاكتشفتْ بأن رأسها لم تكن فارغة كما كانوا ينعتونها.. حلفت فيما بعد بأنها عندما دخلت المعتقل لم تكن تعي الكثير عن الثورة والثوار.

(لقد كنتُ كالقطة المغمضة) قالت ذات مرة.. استيقظنا تلك الليلة على صوت زوامير سيارات اليهود. شاهدت الموقف بأمّ عيني عندما طوقوا بيت جارنا. عصبوا عينيه ثم سحبوه مثل الكلب وسط بكاء أولاده وعويل زوجته. غاب طويلاً. سألوا عنه وبحثوا إلى أن (وقعت رجليهم). سمعنا

بعد عدة شهور بأنهم قاموا باستبعاده إلى الحدود الأردنية حيث ثار به لغم هناك.. قالوا عنه جاسوس، لكن اتضح فيما بعد بأنه أحد قياديي الثورة.. وقتها لم أفهم شيئا وظننت بأن (جارنا زلمي عاطل)، علمنا فيما بعد بأن أحدهم وشى به إلى سلطات الاحتلال. وما أكثر الاعتقالات لشباب قريتنا تلك الفترة.

عندما تقدمت الجدة حلوة في العمر، قالوا بأنها بدأت تخرف وتتفوّه بكلام غير منطقي، أمّا أنا فقد كنت أصدق كل كلمة تنطق بها لثقتي بأنها أعقل الجميع. فكم من المرات كانت تنادي بصوتها المرتجف، الواهن بأن يدا لليهود موجودة بينكم كالسوسة في شوال القمح، فيقهقه الرائح والغادي منها. كم من المرات قالت عالجوا الأمور فيما بينكم وأخرجوا الخائن من بين أحضانكم. لكن لا حياة لمن تنادي. لم تملّ يومًا من الوقوف عند كلّ غروب وشروق على مدخل القرية ترقبُ عودة وحيدها حسن الذي انضم إلى الثوار. كان نهارًا بلا ملامح، وملامح النهار هي شمسه التي تُولد فيه وضجيج كائناته. كان ذلك النهار كأنه الليل على تلك البقعة عندما جاءوا للجدة حلوة بنبأ انفجار مركبة للثوار، وقد يكون حسن من ضمن من مات. لم تنح يومها أو تلطم، بل قالت بصوت مرتفع دستور يا سيدي أحمد (قصدت الشيخ أحمد الرفاعي الكبير، وهو ولي كبير من آل بيت النبوة وله مقام في العراق) ثم قرأت المعوذات، واستحفظت وحيدها لله وظلّت على أمل أن يعود لتتلقاه بين ذراعيها يومًا.

كانت مقبولة تقول بأنها إذا ما خرجت من هنا بسلام فأول عمل ستقوم به هو الانضمام إلى صفوف الثوار. كان الفضل في هذا بعد الله لدلال التي

كانت بمثابة الموجِّه العام للسجينات، فقد حرصتْ على إزالة الأمية من بين صفوفهن لأنها تهدم كل شيء...

المهم، تصور يا ناجي بأننا أصبحنا نبتاع السعادة من لحظات يأسنا، حين تتكلم مقبولة فتخرج الكلمات من بين أسنانها كالحملان البريئة..

زوجوني وأنا كارهة برجل من عمر جدي..

قلتُ له من الباب للطاق بأن ترهلات جسدك تخيفني يا ختيار النحس لا تقترب مني، أمسك بشعري وجرّ جسدي النحيف الذي كان أشبه بالحطبة المستقيمة نحو الفرشة التي أعدّتها النساء لنا، اللئيم، كان شابًّا بجلد عجوز.. سمعتُ فيما بعد بأن هناك عشبة يخبئها في (عبِّه) يلوك قطعة منها عند الحاجة هههههه فتعيد له الشباب. ويعلم الله أنني قبل أن أكتشف أنه يخفيها في ذلك المكان السرّي كنتُ قد بحثت عنها وقلبت الدنيا على أمل إيجادها والإلقاء بها على حطب الصاج وهو مشتعل، لأرى ما الذي ستفعله تلك الكرة المجعدة من دونها....؟؟

لله درك يا مقبولة كيف امتلكتِ هذه القدرة على قلب الحزن إلى فرح وسعادة؟؟

الله لا يضيع عباده فلو لم تكن بهذا المرح وسط كل تلك الظروف الصعبة لكانت الآن في مستشفى المجانين....

كنا نصفق لنص نصيص في حكايات جدتي حلوة عندما يضرب شاته واسمها نخالة على مؤخرتها بمقحار الطابون فتستجيب له وتطير. نقهقه على الغولة التي تمثّلتْ للعم عوّاد على شكل قربة زيت فوضعها تحته على حماره وسار بها إلى قريته وعندما سمعتْ نباح الكلاب انسحبتْ قائلة: طزّ فيك عمي عواد بدو مني قربة زيت. ونخاف كثيرًا عندما تروي لنا تلك

الحكاية الغريبة عن مخلوق عجيب يخرج كلّ ليلة من بطن الوادي القريب من البيوت له رأس إنسان وجسم حصان بحافرين عريضين يشبهان خفّ الجمل، وقد كنّا كل صباح نرتاده نحن الصغار خصوصًا بعد الليالي الممطرة نبحث عن أشياء جلبها السيل معه من البعيد الذي لم نكن لنعرف شكله أو حتى نتخيله، قال عنه الأولاد مرة بأنه موصول ببلاد بعيدة اسمها أميركا. المهم هذا المخلوق كان يمتلك عينَيْن تتقدان كالجمر أسفل صاج الخبز، هكذا قالت الجدة والتي هي حقيقة جدة جميع الأولاد، ولم تكن تمت لأيّ منّا بصلة. يزداد خوفنا مع تشكُّل تلك الأظلة على الجدران بسبب ضوء المصباح الخافت المعلق على الجدار، فنلتصق ببعضنا وقد يبول أحدنا على ثيابه من الخوف بالذات عندما كانت أحداث الحكاية تتطور لذلك المشهد، ليلة اكتمال القمر، حين يتقاتل مع مخلوقات لامرئية، ينتصر الرجل الحصان في المعركة عند الفجر.

وكانت تُردفُ بعد إكمال الحكاية.. هذا الوادي مسكون يا أولاد لا تلعبوا فيه (وإذا مش مسدكين إسألوا إمهاتكن كم جاجة راحن من الخم).. نقسم جميعًا على عدم العودة إلى ذلك الوادي المسكون... لكن النهار له رأي آخر فما أن تبزغ الشمس في وجه السماء حتى تزول مخاوف الليل فتقودنا أقدامنا إليه، ننحدرُ نحو قاعه بسرعة دراجة، نُقلِّب الأشياء، ربما أملا في إيجاد الفرح المفقود بداخلها.. كان أكثر ما يستهويني جمعه هي تلك القطع اللامعة من بقايا المرايا والزجاج، أغطية العلب الفضية.

ربما كانت مقبولة تجمعها لتشاهد انكساراتها من خلالها.

قلتُ لذي الذقن الطويل ذات مرة بعد تحقيق قاس مع مقبولة.. اترك مقبولة فهي بسيطة ولا تعرف شيئًا، لم تزوّد الثوار بالطعام أو بالشراب، هي

لا تعرف سوى أنكم سرقتم ما ليس لكم فابحث عما تريد عند من يعرفُ الكثير وليس عند من لا يعرف شيئًا، ارفع يدك عنها فهي ممسوسة، نصيحة لا تقترب منها.. فتح عينيه على وسعها وقال يا لك من مراوغة...

يومها قلت له بأن مقبولة لا تعرف شيئًا، بينما في الحقيقة لقد كنتُ أكذب لأنها باتت تعرف كلّ شيء...

بعد النظر قد يورث الحظ السيِّئ

(8)

معتقل الرملة.. يتألف من طابقين، يحيط به سور ارتفاعه خمسة أمتار، تعلوه الأسلاك الشائكة، كما تحيط به أبراج للمراقبة. أما الزنازين فإنها تقبع تحت الأرض. استفقتُ من غيبوبتي بعد ذلك التحقيق وإذ بي ملقاة على أرضية إحداها. حاولت فتح فمي فلم أتمكن في البداية. بالكاد استطعتُ إخراج لساني، مرّرْته على شفتيّ بغرض ترطيبهما، شعرت بطعم حلو، إنها الدماء التي نزفت من أنفي وتجمدت على شفتي العلوية. لم أتمكن من معرفة عدد الأيام التي قضيتها هنا في هذا المكان الضيق، كريه الرائحة فلم تكن مقعدة قضاء الحاجة تبعد عني أكثر من شبرين. طعام رديء كنت أتناوله مدفوعة بالعادة لا شعورا بالجوع....

نفث دخان سيجارته في وجهي ومطّ شفتيه للأمام.. إنكم تقيمون الحرب علينا من أجل بقايا من ذرات تراب لأرض تدعون بأنها لكم! وهم هناك وعلى الطرف الآخر يبيعون ملايين من هذه الذرات، فلِمَ لا تتعلمون منهم فتفوزوا بالملايين ثم تعدّوا أشبارا قليلة تخطونها للخلف فتقيمون الشركات وتتملكون الفلل الفخمة والمزارع الواسعة، لمَ لا تريحون وتستريحون؟ أوليستْ هذه أرضًا وتلك أيضًا أرضًا؟ إنكم يا خبيبي في دائرة مغلقة فهل تظنين بأن أحدا سيفكر في دخولها؟ أضيفي إلى ذلك بأنهم يتاجرون بكم كما الصيارفة في العملات، يطبقون القول المعروف عندكم (انج سعد فقد هلك سعيد) هل تفهمينني؟ إنهم مجرد أسماء معلقة على

مقدساتكم، أسماء أفل نجمها منذ زمن. ثقي تمامًا بأنهم أقدموا على بيعكم منذ زمن، فلا تتأملي بهم أبدًا...

تنهدتُ بعمق وقلتُ في نفسي جميعكم في غرف التحقيق مستنسخون.. الدهاء، السادية، النجاسة.. كلّها تجمعكم، لكن في أجساد مختلفة القياسات والألوان، منكم الطويل، القصير، الأسود، الأشقر، ذو العينين الزرقاوَيْن، السوداوين، المنحوستين ووووووو... استنساخ غريب نجس..

كان يومًا مختلفًا داخل غرفة التحقيق، فقد ضمّ كفّ يده على شيء ما.

حرر أخيرا الكومة التي كانت رهينة قبضته، سكتَ هنيهه ثم فجأة..

أنتم لا تساوون ثمن هذه الكومة التافهة، وأشار بسبابته إلى كومة القش المحررة..

ماذا سيحصل يا ترى لو نفختُ عليها؟

أدركتُ سريعا إلام كان يرمي.. فأجبته.. ستتطاير ثم تدخل في عينيك وقد تتسبب لك بالعمى.. ولويتُ جانب فمي. وهنا ثارتْ ثائرته وانقضَّ عليّ. أمسك بتلابيبي.. حيوانة، اندلقت من فمه كقيء، ثم وجّه بصقة نحو نقطة المركز في صفحة وجهي فأصاب الهدف، مسحتُها بطرف قميصي بلا مبالاة وشعرتُ بالارتياح، كانت عيناه حمراوَيْن متّقدتَيْن كجمل مهان عاجز عن الثأر..

الفوقية (هم)، الزمن المتخلف (زمننا)، شعب الله المختار (يدعون بأنهم هم)، الكهوف (مسكننا)، حيوانات قاموا هم بتدجينها (نحن).... هم في حـــالة دفاع مشروع عن النفس!!.. (طبعا)... نحن.... من اعتدى على ما

امتلكوه لقرون (على ما يبدو)، (والآن) جاء وقت الحساب ودفع الثمن (مؤكد)!!!!!

لم يعد همّه الحصول على اعترافي من أجل الترقية التي طالما سعى إليها، بل لقد تولدت لديه رغبة جامحة في الانتصار على كبريائي من خلال كسر صمتي الذي كان أشبه بقشرة فولاذية صعبة الكسر والاختراق، وكان قد عجز عن استخراج ما بداخلها خلال جلسات التحقيق الكثيرة، وكنت قد عانيت خلالها من أساليبه القمعية.. هو الآن يشعر بالهزيمة المرّة التي كان يجترّها بعد كلّ جلسة.... لكنني انتصرتُ عليه، نعم انتصرتُ على فوقيته، انتصرتُ على سجائرهم التي أطفأوها على جلد الصحفية، من نقطة الماء التي كانوا يطلقونها لساعات على رأسها حتى جُنّتْ، من هراواتهم، عصيهم، لمقبولة التي أُجبِرتْ ذات يوم على التوقيع على ورقة تحمل اعترافها على تهمة لم تفعلها، وعندما قالت لهم بأنها لا تعرف القراءة، جعلوها تبصم بعد أن هددوها باغتصابها في الساحة أمام الجميع. مسكينة مقبولة.. قالت لي ذات مرة بأنها سرقتْ!!، كم هي كبيرة هذه الكلمة! كيف اعتبرتْ نفسها سارقة وهو بيت أبيها؟ سرقتُ رغيفًا (قالتها وهي تتنهد) من المطبخ وانسللتُ هاربة من البيت، تواريتُ عن عيني زهرية في حظيرة الأغنام، تكورتُ على نفسي ككبة صوف وبدأتُ بقضم الخبز، تخيلتُ نفسي وأنا بين الأغنام كالذئب الذي ينقضُّ على إحداها فيقدم على نهش ما استطاع على عجلٍ قبل أن تدركه كلاب المرعى. لا تستغربي من تلك الكلمة الخطيرة قالت لي.. سرقتُ.. هي الكلمة الأقرب للحقيقة المرة في وضع كالذي كنتُه مع زهرية السالم، منذ أن دخلتْ الملعونة بيتنا وأنا لم أشبع ولو مرة، بينما كلبها دائم التغوط من كثرة الشبع، إنها قوانينها النافذة، فقد كانت كدستور دولة، نعم لقد كانت زهرية كالدولة (هذا ما قالته

جدتي العجوز حلوة)، فكل من يخالف قوانينها لا بدّ أن تقع في حقّه أشدّ العقوبات، لذلك كنتُ مجبرة على التقيد بجميع القوانين. ابتلعتْ ريقها وأردفتْ..

لكنه الجوع الذي قد يجبرنا أحيانا على حرقها. زبدة (الحكي) إني كنتُ راغبة في رغيف ثان لكني تذكرتُ كلمة لأمي رحمها الله (الطمع ضر وما نفع) قبّلتُ يدي بطنًا وظهرًا، وحمدتُ الله وخرجتُ من مخبأي بأمان دون أن تكتشف الغولة فعلتي الخطيرة والتي يعاقبُ عليها قانونها.... وفي أحد أيام الصيف الحارق أصابني مغص قوي وكنتُ أشاهد أشياء صغيرة جدا قصيرة ورفيعة بيضاء اللون تتحرك بين فضلاتي عند ذهابي لقضاء حاجتي وحكّة مزعجة في منطقة الشرج، أخبرتها بما رأيت وبثثت لها بشكواي، فتقززت مني (انت مدودة يا مقصوفة الرقبة) وحرمتني من تناول الطعام معهما وحرمت علي دخول المطبخ (أكيد) فعندما يكون القاضي غريمك لمن ستشكو همك؟ بقيت على تلك الحالة إلى أن شكوتُ لجدتي العجوز ذات يوم، بكيتُ وأنا أدسُّ أصابعي بين إليتي وأهرش بقوة والمخاط يسيل من أنفي، يختلط بلعابي، ويلوث ثوبها الطاهر المطرز بالأزهار الجميلة التي تشبه قلبها. مسحتْ على شعري وهي تهزّ برأسها. صمتت قليلاً....

(الله يلعن أبوك الكلب كلتيلي كرفت منك بنت الحرام لعاد، قال وبكولوا إنو سيدنا أيوب عليه السلام لما مرض كان الدود بينغل من جسمه نغل، وكان يمسك الوحدة منها وبكوللها كلي من رزق الله). تابعتْ المسح على رأسي ثم أمسكتْ طرف ثوبي ومسحتْ المخاط عن وجهي.. (بتعرفي يا ستي أبوي رحمة الله على روحه درس عند شيخ من مشايخ الشام كان بكوللهم إنو سيدنا أيوب مرض بالحمى أما إنو مرض لحتى طلع الدود من

جسمه فهاي كذبة كبيرة وحرام يا ستي، تعالي تعالي إسا بعملك دوا) وفعلاً بقيتُ في بيتها إلى أن تعافيتُ تماما...

بقيتُ لأيام داخل الزنزانة كان كل شيء فيها ميت، الجدران، الباب الموصد، المقعدة المقززة، الروائح العطنة، لكن كل هذا لم يكسر صمودي أو يثبط من عزيمتي، فقد كانت الذكريات تفعل بي فعل هرمون السعادة. رأيتنا نجلس على مقعدنا وقد سقطنا أمام إغراء الغروب، امام ارتعاش آخر خيط للشمس، أمام هذا الجمال الطاغي، اندماج ألوان الغروب مع صفحة البحر المراوغ، انعتاقها منه عند احتلال الغسق المشهد. استسلمنا للأصوات الدافئة التي تأتي عندما تعاكس الأمواج أطراف الشاطئ. سألتُ نفسي ما هذا الفرح الذي يعتريني؟ أهي رشوة الحياة لي؟ نظلُّ هناك على المقعد أمام الميناء إلى أن يهبط الليل لنستمع إلى ثرثرة الموانِئ مع البواخر، هي ثرثرة لا يسمعها إلا العاشقون، كنت تقول.. كما ثرثرة الريح مع الأغصان، القمر مع النجمات كلّها ثرثرات لا تسمعها إلا قلوب تشبهنا، أحبس أنفاسي حين أستعيد نبرة صوتك وأنت تبوح لي بهذه العبارات حتى لا تزاحمها نبضات قلبي التي تزداد كلّما حاولتُ قمعها.. تهمس في أذني.. الميناء جميل يا حياة، تصمتُ قليلاً وأنت تحدق في البعيد خلف البحر، ثم تردف.. لكن ليس به فقد نستطيع أن نبقى على قيد الحياة، كما الشروق، الغروب، البواخر، رائحة زهر البرتقال، صدقيني إنّ الحياة لها رأي آخر..

أطلقُ ضحكة خافتة، أتقولُ إن لي رأيًا آخرَ؟؟ وهل دخلتَ عقلي لتعرف ذلك؟

تبتسم وتحيطني بذراعك ونكمل رسم لوحة الغروب بصمت..... أدركت تلك اللحظة بأن الحبَّ نعمة كبيرة.

لن نساوم على قناعاتنا
مهما كانت المغريات

(9)

بدتْ أفكاري تلك الليلة مثل كرة صوف انسلَّ خيطها وتشابكتْ بقية الخيوط، ضوضاء في الخارج، أضواء تنعكس تشاكسُ زجاج النوافذ وتتسللُ عبر ستارة الشيفون كلصة، عربدة الشوارع، نباح الكلاب الضالة، هدير الأمواج الغاضبة، اصطكاك أسنان الغيوم، صوت باعة الذرة المشوية، صراخ أغصان تصرّ الرياح على التزاوج بها وإفراغ شبقها كأنها قطط في شهر شباط، أصوات خطوات الغرباء على وحل الطريق العام، بكاء أطفال يختبئون داخل كراتين مزيفة، يلتهمون الطين اللزج، تنتفخ بطونهم كبالونات تنفجر لتعلن الانتصار..... أمسكتُ بذراع البكرج المصنوع من الستانلس ستيل، راقبتُ انتفاخ رغوة القهوة، وزَّعتُها على الأكواب الخمسة وأعدته إلى النار حتى يكتملَ غليانها، أزيحُ الستارة أتلصصُ على المدينة، إنه الظلام، كان كلّ شيء قد سكن واختفى وسط هدوء الليل، إلا من أضواء لسيارة تنصُب رشاشًا من النوع السريع، تراقبُ القطط التي تخرُج عادة من الزوايا الأكثر عتمة، أكملتْ القهوة غليانها، ملأتُ الأكواب. لفتَ نظري خبر عاجل في الصفحة الأولى لصحيفة وُضِعت هنا على عجل ولم تُفتَح بعد. قرأتُه دون أن أمسها... خبر عاجل.. قطط ضالة.. أقولُ في نفسي وهل أصبحتْ القطط تُنعَت بالضالّة؟ هل تغير اسمها من قطط أليفة إلى ضالّة؟ أعيدُ قراءة الخبر من أجل عدم إفقاد الخبر أهميته..

قطط ضالة تخرج كل ليلة تحاول القيام بثورة، اقهقه قطط تقوم بثورة؟؟ أُعيد القراءة وأقسم هذه المرة أن أكمله لآخر كلمة فيه... قطط ضالّة تخرج كل ليلة تحاول القيام بثورة، تتصدّى لها رشاشاتهم، تنسف خططها بعد التصويب عليها وتقتلها جميعًا، وجمعية الرفق بالحيوان تصمّ آذانها.....

أشيح بنظري عن الجريدة، ألعن الجمعيةَ والقائمين عليها، الرشاشات والسيارات، أحاول ترتيب الخيوط في رأسي وأعيد الكُرة غير منقوصة... أُسرع بصينية القهوة لإنقاذ المنشورات من إعدام محتم بين أسنان حنظلة، فهو أحد المشاركين الدائمين في اجتماعاتنا...

كان الاجتماع قد انفضّ غير أنّ حوارًا كان لا زال يدور بينهم.

أتعلم يا صديقي أنني بالأمس وأنا عائد من السوق وبينما كنتُ أسير من جانب عمارة قيد البناء تناهى إلى سمعي اسم.. شاؤول.. عندما صاح أحدهم بآخر. ولا أعلم لما التفتُّ لأرى صاحب الاسم؟ صُعِقت وكدت أُصاب بجلطة عندما وجدت بأن صاحب الاسم ما هو إلا عربي ابن لأحد جيران لنا أيام الحارة القديمة!!

انتظرتُ قليلا لأنّ الفضول قتلني، لمَ يناديه بشاؤول بينما هو عربي ابن عربي؟؟ سحبته جانبًا حين أصبح لوحده.. هل أنت ابن أبي محمد؟؟ ارتبك وأخذ يتلفتُ من حوله ويتأكد بأن أحدًا لم يسمعْ شيئًا مما دار بيننا... وبعد أن اطمأن لي، أخذني بعيدًا عن العمارة.. نعم أنا هو لكنني مضطر لتغيير اسمي وإلا مـــاتت عائلتي جوعًا.. أتفهم؟ قـــالها بمرارة..رإنهم يميزون بين العامـــل اليهودي والعربي مـــن حيث عـــدد الليرات التي نتقاضاها...

انسحبتُ وأنا أتحسّرُ على ما وصلنا إليه....

لا تلمه يا ناجي.. فلقد أخبرني رفيق عن أحد أبناء قرية البروة وكيف قُتِل، فبعد أن حصل على تصريح من سلطات الكيان الصهيوني ليعمل أجيرا بناءً في إحدى البنايات في قرية قريبة، أقدم واحد من أولئك الذين قدموا من اليمن واستفز الشاب العربي، فما كان منه أي العربي إلا أن صرخ بوجهه معترضًا بأن هذه قريته وأرضه، ثم نعته بالدخيل. ولسوء الحظ قام اليهودي اليمني باستدعاء دورية قريبة من مكان العمل، فهرعوا وأطلقوا الرصاص عليه بكل دم بارد... قسْ على هذه الحادثة الكثير... فلا تلم ذلك المسكين... ألا ترى بأن الكيان قام بتحويل الشعب الفلسطيني إلى بروليتاريا عمالية تعيش على هامش الاقتصاد اليهودي؟؟

فجأة انفجرت ثرثرة أصوات لقنبلة في الجانب البعيد للشارع، ناجي، حنظلة، أكواب القهوة الخمسة، المنشورات، الفوضى، بسرعة كالبرق كان ناجي قد أودع المنشورات دورة المياه، وعلى عجل كانت الأكواب قد غُسِلت وأعيدت إلى مكانها، صراخ حنظلة، ناجي والإقامة الجبرية، اهربي يا حياة خلف الرفاق، رفض، صمود، حنظلة، طَرقات فضّة على باب الشقة، اهربي يا حياة، اعتقال، قيود، تنكيل، بكاء، غياب، اعتذار، استفزاز، تفتيش، مديري السجون، سفر، أمريكا، استيراد طرق جديدة للقمع.. قبّلتْ حنظلة قبلة امتزج بها الحب، الحزن، النهاية، الفراق، ثم استنشقتْ رائحة جبينه، كأنها تحاول تعتيقها في ذاكرتها لأطول وقت يصلها بالحياة والموت معًا..

يظنون بأنهم باعتقلانا سيطفئون نار المقاومة من غير أن يخطر لهم ببال أنهم يزيدونها اشتعالاً، فهم كمن يضع الزيت على النار...

أتعلم يا ناجي إن أكثر ما أرعبني في أول تحقيق لي هو عجزي عن تخمين ما كانوا يعرفونه عن العملية، وهل حققوا قبلي مع أحد المشتركين فيها أم

أنهم لم يفعلوا؟ فإما أنني سألقي بحتفي إلى الإعدام أو بحتف غيري، لم أستطع وقتها التكهن بشيء فاختلطتْ الأمور جميعها في عقلي، لولا الخبرات التي اكتسبتها سابقا منك..

حاول ذو الذقن الطويل زلزلة أعصابي لأُدلي بكل ما لدي، ودّ لو استطاع فتح فمي والاستيلاء على الكلمات التي كانت تتزاحم أحيانًا كثيرة لِتَخرج بهدف التخلص من العذاب الذي أذاقني إياه، لولا أني سمعتُ صوتًا يأتي من داخلي، صوتًا أكثر منطقية وعمقًا. استملكتني قوة جديدة جاءتْ كردة فعل لتلك اللحظات التي أحسستُ خلالها بأني واهنة الإرادة مسلوبة الفكرة. شنقتُ تلك الكلمات قبل أن تخرج وتداركتُ خيانة عظمى كادتْ أن تقعْ، إنه إيقاع صوتك يا ناجي سأتبعه وأنا بكامل قواي العقلية، لا تُفلِتْ يدي يومًا وهبني قوتك لأتمكن من مواصلة كفاحي. تذكرانني وأنا سأظل أراكما بعين خيالي أما عين جسدي فهي عاجزة، واهنة...

مؤلم أن تسقط الأيام منا
ونحن في زنزانة

(10)

أصنع كل ليلة قميصًا من بقايا قبلك أرتديه كلما اشتقتُ إليك. فهل تراك تفعل الشيء ذاته؟ أم تراها قبلي اهترأت وتشتت شملها في طرق الغياب؟ هل ما زلتَ تذكرني كما أذكرك؟ أم أن النسيان قد نسلني من ذاكرتك كخيط في كنزة هرمة!

هل تصدق بأنني كلما تمثلتُك أمامي شعرتُ بالفرح يعانقني، يصنعُ لي جناحين أحلق بهما بعيدا عن واقعي المر، أجوب سماءً ملونة بألوان قوس قزح. تداعبني بقايا قطرات عالقة في غيوم حرة لا تكبلها القيود. تبثّ في نفسي طمأنينة وردية تجعلني أبكي كالأطفال. أُطالب بقطعة حلوى أو بدمية قماشية أُلقمها حلمة ثديي. أمارس معها دور أمومتي الضائعة.

أتذكرُ عندما أكملنا مشهد الغروب ونحن نتنصتُ على صوت الماء يضربُ جدران السفن الغافية على ماء الميناء وأصوات النوارس تودع الشمس وتعزف لها معزوفة الغياب على أمل اللقاء على صوت سيباستيان باخ تنطلقُ من شققٍ تتلصصُ شرفاتها على عورة الصخور التي ما فتئتْ تتعرى أمام البحر مع ابتسامة على وجهها ممزوجةٍ بالفرح والحزن كلوحةٍ غير واضحة المعالم افترستها فرشاة رسام لم يتقنْ فنّ الرسم بعد.

بكيتُ عندما وضعوني في الحبس الانفرادي. بكيتُ ما وصلنا إليه. لا زالتْ كلماتك يا ناجي تتردّدُ على مسامعي... لقد قلت لي يومًا: إنّهم يدمرون شبابنا يا حياة. هل تعلمين بأنّ إدارة السجون تمكنتْ من صناعة بعض التيارات الفكرية. عدميين، لوطيين، تيارات تنادي بالإباحية وغيرها

عن طريق إدخال كتب الفلسفة العدمية وحظر إدخال الكتب المفيدة. ويعلم الله كم عانينا مع هذه الفئات التي كانت مواجهتها أهم من مواجهة إدارة المعتقل.

نتذكر دقائق الأمور عندما نكون في عزلة إجبارية، وكأننا نتحايل على الوقت فنقتله بها. تذكرتُ يومها ذلك الخاطر الذي زارني.. كم من الوقت يستطيع الإنسان الصمود بدون طعام؟ فكانت الإجابة وقتها جاهزة لدى دلال لأنَّ الفكرة كانت قد زارتها قبل أن تزُورَني.. قالت بأنّ ثوار الجيش الإيرلندي صمدوا في إضرابهم واحدًا وستين يومًا، كانوا خلالها يتناولون الملح والماء فقط.. فهل نحن بأقل منهم عزيمة يا حياة؟

عدتُ بعد ما يقارب الأسبوعين من الحبس الانفرادي من تلك الزنزانة المتعفنة بوضع يرثى له فأحبت مقبولة بأن تروّح عني... همست في أذني: بعد أن أنهى المحقق استجوابه لي، ولم يتمكن من أخذ حقّ أو باطل مني، صرخ بالجنود.. خذوها، لكنه أتبعها كلمة راقت لمعدتي.. ملوخية.. وهنا انفلتتْ مني ضحكة زلزلتْ الغرفة حتى إنَّ الحارس أطلَّ من كوة الباب.. انخرسوا..

ضحكتُ حتى دمعتْ عيناي، أتعلمين يا مقبولة هذا الكلب شتمك إنّها كلمة عبرية وهي ليست كما التقطتها أذناك، (ملوخلاخيم) تعني عرب قذرون.. نطّت من مكانها، والله لو فهِمتُ معنى هذه الكلمة لكنتُ أمسكتُ بزمارة رقبته وخنقته كما كنا نفعل مع ديك الجدة حلوة..

فقلت في نفسي.. أو كما أمسكتْ بريطانيا بزمارة رقبة العرب يا مقبولة ونتفتْ ريشهم ريشة ريشة، عندما وقف بعد ذلك بعقود كبيرهم الذي عادة ما كان يعلمهم السحر وصرخ لا سلام، لا سلام فردّد الحضور لا

سلام.. وبعدها أصبح الصراخ للسلام موضة صارخة يحبذها الجميع. للصراخ في الأعراف الدولية ثمن باهظ، قد يكون الصفع على المؤخرة، كأس كونياك، أو بصقة على وجه الصارخ، هكذا علمونا، أو على الأقل هذا ما قاله كبيرنا. كما علمونا بأن كيس الخيش لا يخدش وبزر المكانس لا يسبب الإمساك والبواسير الشرجية ولا التقيؤ، علمونا بأن الصراخ لا يصنع التاريخ، كما الرعد لا ينبت الزرع، علمونا بأن السجن للرجال، لكننا رأينا أكثرهم يموت.....

ضيّقتْ عينيها ذات مرة وكانت الأولى التي تشاهد بها تلك الصورة، كان هذا في أول أيامها في المعتقل، قهقهتْ حتى كادتْ تتبوّلُ على نفسها! يومها تأمّلتْها جيدا، فلم تصلها الفكرة من وراء تعليقها، ظنّتْ بأنها ديكورا لإعطاء المعتقل جمالية أكثر مما هو عليه!

صورة القرود الثلاثة المعلقة على جدران المعتقل، الأول يخبِّئ عينية بكفيه، الثاني يضع يديه على أذنيه، أما الثالث فيضعهما على فمه، كأنهم بذلك كانوا يأمروننا بأنْ نكون كتلك القرود، لا نرى، لا نسمع، لا نتكلم، أرادوا قمعنا، الانتقام من خلال إذلالنا من عزّ الدين القسام، فوزي القطب، قاسم الريماوي، الشيخ حسن سلامة الذي أذاقهم الويلات عندما قطع الإمدادات التي كانت عصابة الهاجاناه تبغي إيصالها إلى يهود القدس، وقد كانوا محاصرين من قبل عبد القادر الحسيني. حسن سلامة الذي دبّ الرعب في صفوف اليهود وخصوصًا العصابة التي أصبحتْ فيما بعد تمثل جيش الكيان الصهيوني.

قالتْ لي جدتي يوما بأنهم لو تركونا ندافع عن بلادنا لحررناها، لكنهم أعطوها لقمة سائغة لليهود بعد أن قاموا بشل أيدينا.. كما وكالة الغوث

الدولية. ألم تشل أيدينا أيضا تحت ضغط الحاجة؟ ألم تكسر اقتصادنا؟ بكتْ وهي تقول.. عندما كان أهلنا يُقتَلون بمجازر بشعة ويفرُّ آخرون من الموت إلى خارج فلسطين، كان هناك من هم من بني جلدتنا يتصارعون على أرضنا من أجل مصالح لهم فيها، يا للعار.. عندما سألتها عنهم، هزّت رأسها عدة مرات وتنهّدت.. (بكرة بتعرفي يا ستي).. قالتها ودموع القهر تزيّن وجنتيها اللتين شهدتا الكثير من الخيبات، فكان كلّ خط من خطوط العمر يشير إلى واحدة..

ليتنا استطعنا قتل الخائن الكبير، لكنّا وضعنا الحذاء في فمه كما كنّا نفعل مع الصغار منهم.

تجاعيد وجهك خارطة عمري

(11)

كلّما دخل الشتاء تحولتْ ذاكرتي إلى حفر تمتلِئ بآلاف الصور، تتقافزُ أمامي برشاقة تستفزُّ الحنين بداخلي، أحاولُ هشها لكنَّها صلفة، متمردة، تزداد صلافة كلّما ازدادتْ الصور داخل الحفر، كما حُفر الطبيعة تمامًا، تمتلِئ وحلاً، أوراقاً ميتةً جلبتها السيول الشابة، تستعرضُ قوتها أمام تلك الغمامات الرمادية الثقيلة التي تنزفُ بقوة وتُحمّلُها أسرار قوة السماء، تشحنُ الأرض بها لكي تقاوم، فالأرض أيضا جبارة، ولا أعلم لمَ يحطّون من قدرها عند مقارنتهم بين متناقضين، الجمال والقبح، الضعف والقوة؟ ألا يعلمون بأنّ الأرض تبكي عندما تتناهى عبارة (بعد السماء عن الأرض) إلى مسامعها؟ السماء تعطي ماءها للأرض، والأخيرة تهب خيراتها للكائنات، كلتاهما تمتلك قوة الخير والعطاء، والنقطة الفاصلة بينهما أنّ السماء بحاجة إلى أن نكون قادرين على الطيران حتى نبلغها. والإنسان لا يمتلك أسبابه. فما ذنب الأرض إذا كانوا يستطيعون المشي ويعجزون عن الطيران؟

دولتكم التي تزعم لم تقم على حقائق تاريخية بل قامت على أساطير في كتبكم المحرّفة. دولة ليس لها أي ارتباط بتاريخكم! قامتْ لأن الولايات المتحدة اعترفت بها. السادسة والدقيقة الحادية عشرة مساءً من يوم 14/ أيار/ 1948 اعترف ترومان بها كدولة لكم، أي أن أصغر شجرة في فلسطين زرعها أجدادي هي أطول عمرًا من دولتكم.

أججتْ هذه الكلمات الحقد بداخله كما تفعلُ الريح مع ألسنة النار وتنقلُ لها العدوى. جعلتْ من مزاجه زئبقيا. ومع ذلك فقد أظهر تماسكًا وهدوءًا مصطنعًا. كان من النوع الذي يتمنى لو يظلّ محافظًا على ملامحه. لكن هيهات فقد تمكنتُ من وضع يدي على أسباب ضعفه فقد كان سهل الاختراق بالنسبة لي..

تلوّن وجهه بعدة ألوان حتى بدا لي كأنه أحد ممثلي فرق التمثيل الإيمائي. حكّ ذقنه وقال.. الحقيقة أننا استرجعنا أرض أجدادي التي سُلِبت منهم لمئات السنين، نعم هذه حقيقة ويجب أن تشكرونا لأننا سامحناكم على استغلالها تلك المدة بدلاً من هذه الترهات التي تتقولينها علينا! غلى كالمرجل، نعم لقد أحسستُ بغليانه الداخلي... إنّ الفتات المقدس لتراث أجدادي سجين هيكل سليمان الذي نبحث عنه لنثبت للعالم حقّنا في هذا المكان. ران صمت بليد بيننا.. دقّ على الطاولة التي أمامنا عدة مرات ثم قال وسنثبتُ ذلك.... كانت كلماته حربائية، أخذتْ لون الظروف المحيطة بطاولة الاستجواب. سحبَ نفْسه من فوق الكرسي، كتّف ذراعيه وأخذ يتمشى ببطء. شعرت حينها بأنه يناورني. نظرت نحوه بطرف عيني، كان يرمقني بعينيه (الضيقتين، الغائرتين كثقبين في حذاء قديم) بشيء من الغموض ويبتسم، كانت ابتسامتة صفراء، ماكرة، خادعة، فتكهنتُ بعاصفة قادمة في الطريق تكمن خلف هذا الهدوء الغريب.. لملمتُ نفسي وتجهزتُ لها.

قولي لي الآن ولا تلعبي معي بالكلمات يا ابنة الزانية لأنك ستخسرين اللعبة في النهاية، هيّا ولا تقتلي وقتي، قولي من المسؤول عن ذلك التفجير؟

صمتُّ، وكان صمتًا غير شرعي بالنسبة له، فقد كان يقتضي عليّ من وجهة نظره أن أقبل بالتهم التي يلصقها بي ثم أوقع له اعترافاً بها، المهم

بالنسبة له أن لا يخرج من غرفة التحقيق خالي الوفاض. باتت جميع الأشياء في الغرفة تثرثر.. ابنة الزانية، ابنة الزانية، وتَّرتني تلك الأصوات المتداخلة لكنني تجلدتُ ولم أكن أريدُ له أن ينتبه لهذا التوتر فيكون بمثابة نقطة ضعف يلج من خلالها إليّ ليصطاد ما يسعى إليه.

تذكرتُ ملاءة أمي البيضاء، وجهها الطاهر الذي لم تجفف عنه ماء الوضوء يومًا، تذكرت صومها، تسبيحاتها، ويقول عنها زانية! تداركتُ دمعة كادتْ تنزل وتكشف ضعفي.. جرجرتُ الكلمات التي كانت قد علقتْ في البداية في حنجرتي وأجبته برباطة جأش.. قلت لك مئة مرة أنا لا أعرف وأؤكد لك بأنه ليس لي أية علاقة بذلك التفجير الذي تتكلم عنه ولا أعرف أي اسم في هذه القائمة.

ضحك بصوت عال، وأعاد طرح السؤال نفسه، وإجابتي لا تزال نفسها.

قرّب وجهه من وجهي.. سأكون صبورا معك اليوم لأني أشعر بالسعادة ولا أريد لأي كان أن ينتزعها، شبك أصابع يديه وصدرتْ عنهما فرقعة. أخي سيرزق بمولود ذكر، على أرض أجداده، وعندما يكبر لن يحب أن يجدكم عليها تشاركونه بها، لذا اعترفي يا حيوانة حتى لو لم تكوني مذنبة، سترين بأن هذا العناد لن ينقذك في الايام القادمة..

تقول زوجة أخيك! وأنت! لمَ لَمْ تتزوج إلى الآن لترزق بمولود ذكر يكره وجودنا هو الآخر؟ صمتُّ قليلا ثم أتبعته سؤالا آخر، ما أخبار أفرايم أيها المحقق؟ انتابني إحساس لذيذ وابتسمتُ ابتسامة ماكرة.. أردتُ بها الانتصار لطهارة أمّي..

شعرتُ بارتباكه عندما عريتُه من قناعه، ألقى نحوي نظرة احتقار باردة ولزجة انتفضت لها مسامات جلدي فانهالتْ عليّ الصفعات واللكمات من

حيث لا أدري.... قاومتُ كثيرًا وجدفتُ نحو الشاطِئ لئلا يجرفني هذا البحر العميق من الموت فأبوح تحت تأثير الغرق بما كنتُ أحتفظُ به من أسرار.

كان شعورًا مختلفًا ذلك اليوم. كان كدهشة طفل بطائرة ورقية يمسكها للمرة الأولى بعد أن حلم بها طويلاً، ما أسعدني في تلك اللحظة، كانت يدك دافئة وكان جسدي يشكو البرد، نفضَ دفء يدك جميع تواريخ عمري الحزينة، نفض عن قلبي غبار التشرد، الفقد، الموت، غبار كلّ ما هو قبيح في حياتي، تمنيتُ لحظتها بأن أتسرب تحت جلدك وأسكن هناك لأموت معك، قلتَ لي يومها: بحثتُ عنك في جميع المخيمات وأخيرًا وجدتُك ولن أفرط بك أبدًا. نعم لقد كنت أنت من انتزعني من ذلك الموت عندما دخلت بغيبوبة طويلة جراء الركلات التي تلقيتها على رأسي من ذي الذقن الطويلة وحبيبه أفرايم..

تعالي يا شمس الشتاء

أبادلك بسنين عمري الفائتة

(12)

إنه الصباح الأكثر وحشة، غصنٌ عجوز يحدّق بي من خلف زجاج الفتحات العلوية، أتبادل معه إشارات الصم والبكم.. أسأله عن الأرض..

يجيب.. إنها حزينة..

والأهل؟؟

ما بين مشرد ومذبوح أو معلق على الأسلاك الشائكة..

والشمس؟؟

تراقب بصمت وتحتضنهم بنظرات العاشقين..

والأرض؟؟

مزَّقوها ولا زالت الريح تلملم أشلاءها..

أسأله لِمَ أنا هنا؟؟؟

ينكس رأسه.. أنتِ ثمنٌ لصفقة تمّت أسفل طاولة في غرفة صفراء، جدرانها الخيانة والخذلان....

أمروها بأن تخلع ملابسها، انزلقتْ نظرات الجنود فوق جسدها العاري. حاولتْ إزاحتها، لكنها فشلتْ، أرادوا تحطيم صمودها وانتمائها لفلسطين. لو كانت تحمل قنبلة لكانت واضحة كالشمس، ولو حملتْ بندقية لامتدتْ فوهتها إلى أكبر حاخام فيهم وبصقتْ على شرائعهم الفاشية. أرادوا إذلالها، تعريتها من إنسانيتها. إنهم بذلك يتحدون

مشاعرها الإنسانية، ولا يعرفون بأنها نحاس مذاب صُبَّ فوق حديد صلب يصعبُ اختراقه، فبئساً يفعلون وبئساً يتحدون. إنّنا جبال شامخة لا تُسقطها ريحهم الواهنة.... وبئساً لمن قدَّمَنا على أطباق من ذهب كقرابين لسجونهم ومعتقلاتهم.. قالوا نعدمهم فنقتل الثورة فيهم، فاعترض موشيه ديان (لن أجعل من هؤلاء المخربين أبطالا قوميين).

فوُلِدت المعتقلات (قبور الأحياء) تحت مباركة الدول الإمبريالية تطبيقًا للمقولة الصهيونية (العربي الجيد هو العربي الميت)....

جلستْ على فرشتها بعد جلسة تحقيق. تدلى رأسها بين كتفيها، احتضنتْ جسدها بذراعيها ومدتْ ساقيها. سكنتْ ملامحها عالما آخر كناسك في محرابه. كان صمتُها أكبر من صمت أسلحة العرب مجتمعة، دفنتْ مرارتها في أعماقها وابتسمتْ لا لأحد، كانت ابتسامة مزيفة فغلالة من الحزن انسدلتْ على ملامحها رغمًا عنها. جميلة عيناها رماديّتان اعتلاهما سيفا الحاجبين كفارس خرج من حكايات أبو زيد الهلالي، أميرة في محرابها.. جارح حارق جمالها الذي يبدو بأنه اقترب من آخر حدّ له، للأشياء حدود تنتهي عندها، للحياة حدّ، السعادة، القتل، حتى الكيان الغاصب له حدّ، إلا الخالق فلا تحدّه الحدود كما كانت تقول جدة مقبولة حلوة، الحروب ستنتهي فهي تشبه الحياة تنتهي عند آخر حدّ لها وهو الموت، صدقيني يا (ستي) حتى الحروب تموت.

عوى الذئب الذكوري فأقدم على افتراسها، بركة دم أسفل عجيزتها مكان الافتراس ليس العنق كما تفعل الذئاب الشريفة، لم يكن من عوى ذئبًا واحدًا، لم تصرخ أو تحاول الانفلات، هي فقط غابت عن الوعي فكفّ المفترس...

دخلتْ وهي تجرُّ ساقيها، اختلطتْ دموعها بمخاطها والتصق ببعض خصلات شعرها المنكوش، ألقتْ بنفسها على فرشتها كتمثال سقط بعد انقلاب عسكري لرئيس دولة. أخذ جسدها ينتفض، لم نستطع الاقتراب منها إلا دلال التي جلستْ إلى جانبها وغنت لها، فهدأتْ.

يا أماه اعلمي بأنهم سيمثلون بجثتي بعد قتلي لو أنا هُزِمتُْ، ردّتْ الأم المكلومة، أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها على سؤال ابنها عبد الله بسؤال: وهل يضرّ الشاة سلخها بعد ذبحها؟؟

تلك الصحفية ذُبحت منذ أن دخلتْ المعتقل ولن يضرها كل ما تَلقَى من سلخ وتمثيل.. وستفسد عليهم أخراهم كما أفسدوا عليها دنياها. كانت ميّتة حية، يحتل الموت كلّ كيانها، تسكنُ عالما آخر لا يعترف إلا بمفردات اليأس. تمسك خيوط الموت كلّ يوم دون أن نشعر بها، فكيف للأحياء أن يكتشفوا ما يدور في عالم الأموات؟ أحبتْ الشيء الذي يهربُ منه الآخرون وتعلقتْ به حتى انتزعها وهي راغبة له... يومها عرفت بأن ليس للموت لون محايد.

بعد أن عادتْ تلك الليلة أخذتْ حمامًا قبل النوم بالرغم من برودة الجو، سرّحتْ شعرها، ربطته على شكل ذنبة فرس، كانت طبيعية جدا وكأن عقلها قد رُدّ لها بالكامل. حدقتْ بي، ابتسمتْ ابتسامة عريضة سريعًا ما تلاشتْ كدخان سيجارة، فكانت المرة الأولى التي ألمح بها جمال أسنانها، وجنتاها تلك الليلة تقمصتا لون الكرز، تمددتْ على ظهرها، بحلقتْ بالمصباح المعلق الذي بدأ يعاكسها بأضوائه الهرمة فارتعشتْ خجلا كغصن عار اقترب منه تيار بارد حرك بداخله شيئا ومضى. غفتْ وبقايا ابتسامتها لا زالت ترافق وجهها القمري..

تلك الليلة رأيتني أسير في الشارع المؤدي إلى بيتنا، فجأة إذ بأناس يتقيّؤون معاهدات منحطة، أوراق بيع لأراض، اتفاقيات، غصّ الشارع وانقلب سيل من القرف، كان الجميع يرتدي أحذية مطاطية بأعناق طويلة، إلا أنا فقد كان حذائي رقيقا، والسيل يجري بسرعة فائقة نحوي إنه يتقصدني، أحاول أن أتحاشاه، لكنه أسرع مني، فجأة وقعتْ مني نظرة للأعلى فإذا بذي الذقن الطويلة يقف في إحدى الشرفات ينظر إلي بشماتة ويقهقه بصوت عال، قلت في نفسي ها هي الرذيلة تقعي على قفاها ككلب يهز ذيله غير مبال، قهقه الخبيث كأنه سمع ما قلته وحدجني بنظرة مخيفة. صرخ قائلاً: إنكم كغصن ميت في شجرة. سرتْ رعشة في جسدي فناديتُ بأعلى صوتي، دلال، مقبولة.. فتحتُ عينيّ على أضواء الفجر الوليدة وأنا أغرق بعرقي.. لا، إنني لا أحلم، طيف لجسد يتأرجح على الجدار المقابل، حدقت به جيدا، لعلني أحلم، انتفضتُ بسرعة والتفتُّ نحو الجهة المعاكسة للطيف، صرختُ، الوجه في الراس المتدلي فقد أي لون للحياة وسكنه الموت، ذلك اللون الذي كانت تحبه، إنّه ليس بحلم الجسد مرتخ كأنه نص موسيقي هارب من إحدى التمثيليات الصامتة، ساكن إلا من تيار هواء خفيف يتسلل من الزجاج المكسور لبعض الفتحات العلوية ويتلاعب به بصمت.. فركتُ عينيّ، نفضتُ بقايا النوم منهما، صرختُ مرة أخرى، لقد انتحرت، استيقظت دلال، مقبولة وبقية المعتقلات.. كان هدوء الجسد واستكانته أقوى من بحر غاضب، فبعض الهدوء قوة. وقد أطلقتْ على نفسها رصاصة الرحمة الوحيدة التي كانت تمتلكها وقالت للكون وداعًا لن أكون طعمًا في صنارتك فقد أرهقني ظلمك، ظنك السيِّئ وشكوكك المتتالية في حقيقة طهارتي..

في غمرة الخوف واليأس يفقد الإنسان السيطرة على نفسه فيكره ويمتلِئ بالقهر، عندها فقط يرى حبل المشنقة أمانًا وهروبًا من الواقع.

احتل الحزن ذرات المكان لأيام، كان كنار تباطأتْ في الانطفاء تحت الرماد.. لقد كانت ميتة على أي حال فما أن دخلت المعتقل حتى كان الموت قد عقد صفقة معها وبانتحارها تركتْ رسالة احتجاج للعالم.. ران الصمت على كلّ الأشياء، فانكسرتْ اللوحة وتبعثرت التفاصيل...

موت تلك الصحفية ذات العينين الحزينتين هو وصمة عار للعرب وللعالم لأنَّ اليهود ركلوا بنود معاهدة جنيف في معاملة الأسرى نحو الحائط. هذا ما قالته دلال للجنة الصليب الأحمر.

حياتنا قفزة قصيرة، من ظلام إلى ظلام
وللقلب ذاكرة سريعة العطب

(13)

مرحبًا أيها الفرح المختبِئ تحت طيات القدر، عذرًا فأنا لا أنوي إزعاجك لكن هناك سؤالاً يهدر في رأسي كقطار قديم. سمعتُ بأنك ستمر في محطة الليل ذاك المساء الذي سينضج به القمر على شجرة السماء، وها أنا أجلس منذ شهقات على مقعد الانتظار لكنّك لم تأتِ...

قام بخنقه، وزهرية تكزُّ بأسنانها على منديلها الملون. الجسد الصغير يتلون باللون الأزرق يشوبه الاحمرار... استعدي للعزاء من (ثمّ ساكت) وإلا ألحقتك به. لم يقترب منها منذ أن أخبرته بحملها. بعد خنق مولودها ظلتْ متمسكة بمنديل أسود تلفه حول شعرها، تجلس كالشاة الجرباء في غرفتها تنوح بصمت، هجر فراشها، لم يأكل من طعامها، هزل كثيرًا بعد خسارة دهون جسده، ولم يبقَ من الثور غير الجلد والعظم... هكذا كانت تنعته الجدة حلوة، كانت تقول أبوك كالثور، موسى الزايد كم مرة نصحتك ألا تظلم مقبولة كما ظلمت عفيفة.. عفيفة هي أمي كانت تقول عنها جدتي (إمك درويشة يا ستي ومالهاش حظ مع أبوك).

غادر أبي مع زهرية (بعد أن تعافتْ جسديًّا، أمّا نفسيًّا فقد غدتْ هشّة كخبز من غير خميرة) بحثًا عن مرعى للأغنام، كانت المرة الأولى التي يغادر بها العراقيب، تركني أمانة عند الجدة حلوة لحين عودته.. عاد بعد شهور دون زهرية.. قال بأنها ماتت.

ماتت زهرية السالم، ماتت التي أذاقتني من العذاب ألوانا جديدة صنعتها خصيصًا من أجلي، بسببها كانت طفولتي قصيرة، مرت بسرعة

كقالب كيك محروق لم يسعه الوقت لينضج من الداخل.. أقام لها عزاء.. قال بأن عقربة سامة لدغتها، فماتت من لحظتها، بكى أمام الرجال.. المسكينة لم تهنأ مات ولدنا فلحقتْ به وكأن روحه طلبتها.... تحلى بشجاعة زائفة كمن مضغ كميات كبيرة من القات.

حزن كلب زهرية الذي طالما أحسنتْ إليه أكثر مما أحسنتْ إليّ حزنا شديدا، فكان كل منتصف ليل يقف عند باب غرفتها ويعوي عواء طويلا كأنه يبكيها.. كان ثمن إزعاجه للجيران ولأبي رخيصا رصاصة واحدة في رأسه.. حزنتُ عليه بالرغم من المرات التي أغاظني بها عندما كان يشبع من طعامنا بينما أنا أتضور جوعا.

حوادث كثيرة غريبة الأطوار حصلتْ في العراقيب تلك الفترة.. أذكر بأني خرجتُ ذات صباح مع أولاد الحارة إلى مكاننا المفضل لنجمع ما جلبته مياه تلك الليلة وتركته هدية لنا في الوادي كما تعودنا، وما أن انحدرنا للأسفل حتى كانت صدمتنا، صرخ الأصغر سنًّا بيننا وتجمدوا في أماكنهم، أسرع بنا فضولنا نحن الكبار نحو رجل منكفِئ على وجهه يغوص داخل بركة من بقايا ماء الليلة الفائتة تتوشح بلون أحمر، من الواضح أنّه قتل صباحًا وإلا لكانت أمطار الليلة الفائتة سحبت جثته بعيدًا، هززناه لنتأكد من موته، فتبعثر جيش من الذباب في جميع الاتجاهات ثم عاد ليلتصق به، ركضنا نحو البيوت لنخبر الكبار بما وجدنا...

البائع المتجول مقتول، أحدهم أطلق رصاصة واحدة اخترقتْ جمجمته وكانت القاتلة، إنها واحدة يا لها من مصادفة غريبة.. من فعلها يا ترى؟ وماذا فعل هذا المسكين حتى يموت بهذه الطريقة؟ لا بدّ بأن له أطفالاً ينتظرون عودته الآن؟ البارحة كانت النساء تتجمع حوله، الميسورة منهن

تشتري بالكاش وأخريات يقايضنه على حاجيات: هذه على بيض دجاجها وتلك على رطل قمح، كيف انتُزِعتْ منه الحياة ما بين ليلة وضحاها؟ ثم أين ذهب حماره المحمل بالبضائع ونداؤه ولتغته فقد كان حرف الراء يخرج من فمه غاء، وبعض الأحايين كنا لا نتمالك أنفسنا فنقهقه بصوت عالٍ ونقوم بتقليده، يسمعنا فيبتسم ابتسامة صفراء لكنه لا يبدي أي غضب منا، وكم كان يعجبنا لون شعره الأشقر وعينيه الزرقاوين، فكثير ما وقفنا بالقرب منه نحدّق به وكأنه قادم من الفضاء، المهم أن رجال القرية قاموا بالتكتيم على الموضوع؛ لأنّ اليهود كانوا سيتخذون منه ذريعة للتردد وإزعاج سكان العراقيب.. ألا يكفي بأنهم يباغتون القرية كل فترة فيهدمون بيوتنا ويسحبون أولادنا إلى سجونهم؟؟ قاموا بدفنه في مكان بعيد عن القرية، وأصبح بعد ذلك في طي النسيان. وزهرية أين ذهبتْ؟ بالأمس كانت معنا تفعل بي الأفاعيل تستخدمني كخادمة لها، تحرض أبي ليضربني، فتأتيني ضربات العصا دون تمييز على جسدي الهزيل، أهرب باكية إلى جدتي حلوة، تحتضنني، تطبطب عليّ، تدعو عليهما، أرجوها بأن لا تدعو على أبي، فتكفّ. اتسعتْ دائرة الحزن في عيني مقبولة وهي تحاول إحصاء المرات التي صفعتها بها زهرية. قالت ذات يوم.. لن أنسى ضحكتها الممطوطة ولا نبرة صوتها، غنجها، مياعتها، التي كانت تستخدمها لتسقط قلاع أبي... أذكرُ بأني تلصصت ذات مرة عليها من خلال النافذة الموارية، وإذ بها تخرج من صندوق كان لأمي أساور ذهبية لها بريق لامع كالشمس، كانت ستَّ حلقات ذهبية أدخلتها وأنا أتابع حركتها وهي تدخلها واحدة واحدة في يدها البيضاء الممتلئة ولعابي يسيل عليها، رفعت يدها للأعلى، خشخشت بها، صدرت رنة ناعمة لها، هل أحضرها أبي لها؟ لم تكن من ذهب أمي الذي أوصت به لي، ثم ذهب جميعه

إلى زهرية حينما تزوجها أبي، ثم خلعتها وأخفتها بين ملابسها، أغلقت الصندوق وبدأت تدندن.. تنهدتْ مقبولة بعمق وهي تجترُّ تلك الذكريات.

فوضوية..

كبجعة تضرب الشاطِئ بجناحيها

(14)

وجدتني أختلط بذلك الفتات من صوت الريح، دوي الرعد، اصطكاك أسنان الغيوم، أتلوى كأفعى مجروحة، أضغط رأسي بيدي، أتوتر، أشعر بأنني أقترب من مركز إعصار، أصرخ، إنّه يلتهمني، يمزقني، ينثر بقاياي على رؤوس الأشواك، على الأسلاك الشائكة، أحاول جمع شتاتي، ترتيبي، أفشل، أصرخ وأصرخ... أمسك بالغطاء أعصره بيدي، أفتح عيني، أتحسّس جسدي، ها هي يداي، رأسي، جسدي يتكوّم بكلّ تفاصيله، من جمعني يا ترى؟ وقد تركتُ نفسي هناك مبعثرة الأجزاء بعد أن فشلتُ في جمعها؟ أصابع تتحسّسُ وجهي، تنزلقُ على بقية جسدي، أرتعش ارتعاشات لذيذة.

هل عدت؟؟

فيجيبني.. عدت.

أسأله أين معطفك الذي أحبّ؟

يجيب.. هل نسيت يا حياة؟ ألم نخبئه في الخزانة لنعتق رائحة حنظلة؟؟

ترتفع الأصابع ويختفي الصوت.. أين أنت يا ناجي؟ أناديه حتى يبلغ صوتي آخر متاهة في عمري، أناجيك أرجوك بان تُلملِم لحظاتنا وترتبها. أوصيك أن تُحسِن تزيينها في ألبوم الذكريات. احرِصْ عليها من الرطوبة والهواء لئلا تصدأ، حاولْ أن تحضرها معك في أوّل زيارة، وسوف أشتريها منك بكل أيام عمري... أستيقظ على ضجيج الصباح، أحدق بالجدران،

الحقيقة الوحيدة هنا، أمّا الحرية فهي وهم كبير كما الوطن، العائلة، الحبّ، الفرح، ناجي، حنظلة، المخيم، كلّها وهم...

كان صباحًا مختلفًا، اقتحم الجنود فجأة غرفتنا، صرخوا.. قومي يا حيوانة، سحبوني من فراشي، سحبوا مقبولة أيضًا، صرختْ بهم دلال صرخة لم تتجاوز أكثر من خوفها علينا. ألقوا بي في غرفة فارغة، كنتُ أدخلها للمرة الأولى، طاقة صغيرة احتلتْ الجزء العلوي من بابها الحديدي، صوت مقبولة كان يصلني عبر بهو يفصل بين عدة غرف..

لم أفعل شيئًا، بماذا أحلفُ لكم، لم أقدم على تزويد الثوار بالطعام، رأيتها من خلال تلك الطاقة الصغيرة، كأنهم تعمّدوا أنْ يسمحوا لي برؤية ما كان يجري في الغرفة التي كانوا يستجوبونها بها، شممتُ رائحة مؤامرة خبيثة.. أمروها أن تتعرى، أحاطتْ صدرها بذراعيها وشدّتْ عليه، توسلتْ إليهم.. إلا هذا!! رجتهم أزاح اثنان منهم يديها فكّوا أزرار ثوبها. صرختْ، اتركوني، لم أفعل شيئًا، أدخل أحدهم يده داخل صدرها، هرصَ ثديها، صرختْ، وعضّتْ ذراعه، صفعها على وجهها فسقطتْ على الأرض... طرقتُ بقوة على الباب الملعون، لا تؤذوا مقبولة هي لم تفعل شيئًا. طرقتُ وطرقتُ حتى استفززتهم. فسارع أحدهم، انقض على الباب فتحه، ضربي بعقب بندقيته على رأسي، فقدت صوابي بعدها...

أعترفُ بأنك امرأة لا يمكن فهمها من أول نظرة كغيرك، كانتْ كلماته تظهر ثم تختفي كسحلية الرمال، لكن أعدك إن لم تعترفي الآن وقبل أن أغادر باب هذه الغرفة بأن أطلق جنودي على مقبولة لتكون لقمة سائغة لذكورتهم... صمتَ قليلاً، لا ينقصني الذكاء حتى أكتشف بأني لا أقف أمام ديميتروف وأنا أستجوب تلك البدوية، وأعلم بأن جنودي سحبوها

من خلف الغنم، وأجزم بأن لا علاقة لها بالثوار.. ثم ابتسم ابتسامة باهتة مغلفة بالكثير من الحقد.

وأنتَ تقوم بتطبيق نظرية ذلك الفيلسوف الهولندي سبينوزا الذي فسّرَ الحروب والصراعـــات البشرية على نحو مغــاير لمن قبله من المنظرين والفلاسفة، تلك النظرية البذيئة التي قال بها (أن كل ما يراه الفرد الخاضع لمملكة الطبيعة ويجده نافعًا له يحقّ له أن يشتهيه طبقًا لحقٍّ طبيعي مطلق وأن يستولي عليه بأي وسيلة).

ضربتُ الطاولة بكفي.. وها أنتم اشتهيتم بلادنا واستوليتم عليها بالقتل والطرد والسجن وغيرها من الطرق الحقيرة، والآن تريدني أنْ أعترف بتهمة لم أقم بها عن طريق تهديدك باغتصاب مقبولة من قبل جنودك.. لكن لم تخبرني! لمَ لا تقدم أنت على اغتصابها؟؟؟ قلتُها ثم بذلتُ جهدا لتخليص عيني من نظراته الوحشية، لم أكنْ أريد أن أضعف أمام الخوف من هذين الثقبين الضيقين اللذين يلتمعان شررًا.

انقضّ علي، أمسك بشعري، شدّه بغلّ، وقد علا الزبد شدقيه، إلام تجدفين بسؤالك أيتها القذرة؟ شعرتُ بأننا محصورون على رقعة لا تزيد عن أربعة وستين مربعا خالية من البيادق إلا من فريسة تهربُ من آموك لن يوقفه شيء إلا القتل .. يوم واحد يفصل بينك وبين المحاكمة وعشر دقائق تفصل مقبولة عن الاغتصاب، أفلتَ شعري ونقر رأسي بسبابته عدة نقرات.. أعلم بأن عقلك كالصخرة الصماء، وهذا لا يهمني، كل ما أريده هو ذلك العرق الأصفر الباهظ الثمن المختبِئ بداخله... سحب يده، أنت تفهمينني! فكري على أقل من مهلك، بلّل شفتيه بلسانه بعد أن جفتا من شدة الحنق ونفاد الصبر... صفَقَ باب الغرفة، سمعتُ دوران المفتاح. باتتْ

رغبته عنيفة في سحب الاعتراف مني، كشرارة نار بدأت بالاتقاد والتضخم إثر فضوله الذي بات يهف عليها بلا توقف، عندها فقط تأكدتُ بأني كسقراط عندما أجبره جلادوه على تجرع السمّ بنفسه. لفني ضباب الحيرة كسفينة وحيدة وسط المحيط، حاولتُ أن ألملم ما تبقى مني أمام الكثير الذي تلاشى. دفنتُ رأسي بين فخذي، بكيت بمرارة، انتحبت، عصرت يدي، عرفت حينها بأن الأسرار قد تُضطَر أنْ تنفلت من مدارها وتتعرى أمام الجميع... اختنقت في ضحالة هذا الهواء الآسن لهذه الغرفة الكئيبة.

لا بدّ أنَّ أمواج البحر تهدر الآن هناك لكنّ المسافات تمتصُ أصواتها، كم اشتقتُ لها كما لرائحة رذاذ البحر الممزوجة برائحة الذرة المشوية، يافا تلك المدينة الحزينة، أم الغريب أصبحتْ ضائعة تتوه في أزقة الغرباء، أنفاسهم، عبق أجسادهم، نظراتهم، بكيتها، بكيتُ ناجي بكيتُ كلمة ماما أول حروف نطق بها حنظلة، كم أشتاق رائحتك يا صغيري، هل يا ترى سأضمك إليّ يومًا؟ إن اعترفتُ لهذا الكلب الفرنسي لن يحصل هذا يومًا، وإن أصررتُ على الإنكار فستكون مقبولة هي الضحية وكبش الفداء لنذالتهم، ماذا أفعل؟

ارتفعتْ الأمواج تلك الليلة على غير عادتها، صفعتْ صخور الميناء بشدة. كانت تروح وتجيء كمن ينتظر خطرًا كبيرًا. أتذكر يا ناجي؟ ليلتها قلتَ لي: إنّه الميناء يشعرُ بكل ما يجري داخل السفن التي ترسو على صدره، يميّزُ الغرباء، يشتمُّ رائحة المصيبة قبل أن تحلّ، هو فقط لا يمتلك لسانًا ليخبر بما يحدث، لكن من الواضح أنّه يلمح أشياء غير عادية، فكلّما

وصلتْ باخرة تهتزّ أطرافه خوفًا كلّما وقعتْ عيناه على تلك الصناديق المحملة بالموت والوباء...

يرتعشُ جسدي، تضمّني إليك، لا تخافي إنني هنا معك..

صُفق الباب للمرة الثانية، انتفضتُ من إغفاءتي، حاصرني الخوف وكان ككلب صيد يدور حولي، يترصدني، يترقب إطلاق الرصاصة.. اقتربَ من الطاولة، نائمة؟؟ لمَ لا تريحينني وتستريحين؟ قالها بهدوء محاولاً بذلك مدّ جسور من الألفة الزائفة بيني وبينه.

جلس بلا حراك وأخذ يحدقُ بي بصمت، كانت تقاطيعه جامدة توحي بأنَّ شيئًا سوف يحدث.. لأول مرة أشعر بارتجاف قلبي، لأول مرة أشعر بأني كورقة تستسلم لطغيان الخريف. لم أخف منه يومًا، لكنّ هذه المرة كانت مختلفة، فمقبولة كانت تقف بيني وبين صمودي. وقبل أنْ أعلن استسلامي قلت له والدموع تنسربُ من عيني... حينما كانت الأمهات تروي قصص ما قبل النوم لأطفالهن فتفتح لهم بها أبوابًا على المروج الخضراء وغابات لا تخلو من زرافات وأرانب مسالمة كنتم تفتحون لأطفالنا مروجًا من دم يدخلونها فيهرمون وتضاف همومًا بحجم الجبال على أعمارهم. وبينما يتغنى أطفالكم باللون الأحمر ويصبغون ورودهم به، كان أطفالنا يخافون هذا اللون ويتجاهلونه، بل ويهربون منه هروب الفريسة من مفترسها، هؤلاء هم أطفال النكبة يكرهون الأحمر كرههم لكم. ثِق تماما بأنهم لن يتحرروا من عقدة الأحمر إلا حينما تخرجون من فلسطين...

بحلق عينيه الضيقتين في سقف الغرفة وهو يتكِئ بذقنه الطويل على يديه. بعد أن قام بعقدهما بعنف لدرجة أن عروقهما قد نفرت للخارج،

أفلتهما فجأة وصرخ بي، أطفالكم لا يعنون لي شيئًا وما يعنيني الآن هو اعترافك، وتلك البدوية طهارتها تنتظر قرارك في تلك الغرفة، فماذا تقولين؟ خرجت كلماته كأنها ضفادع لها نقيق مقزز. فتناسلَ الخوف في داخلي للمرة الأولى، وتكاثرَ لولا جلسة التحقيق التي بدأ وقتها بالاحتضار، فرحتُ لظهور علامات الموت عليه لتنهي مأساتي مع هذا المنفصم الذهاني، كل تفصيل في حياته بدءًا من بوهيميته إلى التنكيل بأسرته حين كانت في غيتوات ألمانيا، تنكيل النازيين بهم وإلى هذه اللحظة كان يحرضه على العمل على تدميري وإخضاعي لأعترف بكل شيء....

انتهى ذلك اليوم الأصعب في حياتي بعد أن ترك لي فرصة التفكير لحين يوم المحاكمة.

أصختُ السمع لصفعات ريح كانون على الوجه الضيق لطاقات التهوية العلوية. كم كرهت ذلك المصباح المضاء هناك في الأعلى وهو يرتعشُ كعجوز مصاب بالحمى، يحسبُ أياما لا تمضي. أطلقَ النهار صفير وداعٍ محزونٍ، وغرق الكون بلون غسقي رائع كالحلم، تهيأ عندها الكون لاستقبال القتامة كما تهيأتُ لها أنا... فليتني أستطيع العودة إلى تلك الفترة، فترة الأمان التي كانت اللامسؤولية هي المصطلح الأكثر تكرارًا في قواميسها اليومية... بيد أنّ للواقع كلابات لئيمة تسحبنا نحوه كلما حاولنا التسلل هاربين عبر بوابات الماضي الذي نشتهي.

لن يتمكنوا من حشر سمائنا في قمقم

(15)

ماذا يعني أن تنفلت السعادة من مدارها وتغادر إلى حيث التيه والضياع. فهل هي من أرادت ذلك بحثًا عن شيء آخر له حواف وزوايا لأنها ملّت الاستدارة، أم أنَّ المدار هو الذي قذف بها بعيدًا أملاً في الحصول على أخرى أكثر شبابًا؟

رياح تلك الليلة نزقة، ضربتْ بسوطها كل من وقف في طريقها، لم تسلم منها الأشجار ولا حتى الفتحات العالية، مطر غزير كما لو أن السماء أصابها نزيف داخلي! لم نعرف طعم النوم، كانت ليلة مخيفة انفجرتْ شبقًا، ارتوت الأرض من نسغها فأوحلت تربتها. لقد كان جوًّا جنونيًّا، جنائزيًّا بامتياز.

يومها اعترفتُ فكنتُ كمن يضغط على جرحه العميق فيستفز الدماء للخروج..

اعتبروني يوم المحاكمة إرهابية، صدر الحكم وكان ثلاثة مؤبدات. وكأني سأعيش عمرين مضافين إلى عمري! غدوتُ يومها كسمكة سردين في منقار طائر، استسلمتْ للهواء وسكنتْ حركتها. مضتْ تلك اللحظات مُثقلة بالخوف ورياح الغضب تزمجر في داخلي. رمقني ذو الذقن الطويل يومها بنظرة غريبة وابتسامة لا تخلو من التشفي والشماتة. بالرغم من ذلك فقد كنت أعلم بأنه مهزوم من الداخل. لكن الشيء الذي أراحني بأني كنت أعلم بأنه يدرك أنه عار أمامي تماما. فما هو إلا كتلة بشرية تختبِئ حقيقتها خلف ذلك الزّي الذي يرتديه، كثيرة هي تلك الكتل التي تختبِئ

خلف شعاراتها، مكانتها الاجتماعية، ظهورها خلف شاشات التلفزيون، القابها المزخرفة. قلت له مرة: إنّ الحياة تتواطَأ معكم، فها أنتم قد استوليتم على ما ليس لكم لمجرد أنَّ فكرة راودتْ أحدكم.

فكان ردّه قاسيًا، قال وقتها بأنهم عندما صمتوا (أي عربنا)، تكلمنا (عنى قادتهم). وعندما سلموا، كنا قد بدأنا. كانت جميع الظروف تسير إلى صالحنا، تتبعنا كظلنا، لم نعدم يومًا مصدر الإضاءة لإكمال ما خططنا له وتمنينا صيرورته منذ قرون، المشكلة أن نفسكم قصير كآخر ظلّ لشمس الظهيرة. أمّا نحن فأنفاسنا طويلة، طويلة جدا.

نضحي بقوتنا أحيانا ونركلها بعيدا من أجل من نحب.. نعم لقد تخليتُ عن قوتي من أجل أن تبقى مقبولة بخير، وحتى لو ضحيتُ بسنيّ عمري جميعها. كنت أقول لن أسمح له بفضّ بكارة أسراري، لكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن... يومها بكتْ مقبولة، لامتني كثيرًا، احتضنتني، غمرتني دموع صدقها وبراءتها، وهذا يكفيني. لمن سأخرج يا حياة؟ لا أحد سيكون هناك في العراقيب بانتظاري سوى ذلك العجوز الأناني. جدتي حلوة ماتت وأبي التحق بالثوار بعد قصة زهرية وعشيقها البائع المتجول اليهودي الذي أحزننا نحن الصغار عندما عثرنا عليه ميتًا. زهرية التي تحكمتْ بحياتنا وسيطرتْ على عقل أبي لسنوات ليست سوى عميلة حقيرة لليهود. انكشف أمرها لأبي مذ أخبرته بحملها. سأسميه على اسم المرحوم أبي، قالت يومها. لم يشعرها أبي بأنه اكتشف خيانتها لكنه ضمرها لها؛ لأنه كان قد فقد القدرة على الإنجاب بعد ولادتي، هذا ما أخبره به الطبيب عندما زاره بعد زواجه من زهرية.

كانت الملعونة تُسرِّب الأخبار لذلك الألتغ حتى زج بالكثير من شبابنا في المعتقلات. كانت قد كشفتهما جدتي حلوة رحمها الله وأخبرت أبي قبل أن يعلم بحمل زهرية، عندما أخبرته بحملها لم يقم بأي ردة فعل بل تركها ليترصد لذلك الخائن. انتظره أسابيع حتى جاء ذات يوم شتوي بارد، محملاً حماره بالبضائع. ولا أعلم كيف تحايل عليه أبي وجرّه ليلا بعد انقطاع المطر إلى الوادي، وأنهى حياته برصاصة واحدة، قال بأن رصاصة أخرى خسارة به.

قد يتبلور الحرام أحيانًا في مولود كمولود زهرية أو شهوة محمومة تقودك إلى سرير غريب، وقد يتبلور أحيانا على شكل وثيقة هابطة تقرر مصير رقاب كثيرة. فالحرام له طرق مختلفة.

دُفِن سرُّ زهرية والبائع ولم يطلع عليه سوى الجدة وأبي وأنا، وكنت قد عرفت به للصدفة عندما سمعتهما يتحدثان بالموضوع حينما شدّني بكاء أبي، كانت المرة الأولى التي أسمعه فيها يبكي، فهل أبكاه ذلك الوقت شرفه الذي تلوث؟ استخفاف زهرية بفحولته؟ ندمه على معاملته لأمي الطاهرة؟ العقاب الذي كان ينزله بي بسببها؟ شعوره بأنه كان السبب في كل ما حصل في العراقيب من قبل اليهود؟ أم أنه كان كالثور الذي التفت فجأة فلم يجد رفيق المحراث فأطلق خوارًا عاليًا؟ هل كرهها بالفعل؟ هل انعتق من سحر جسدها؟ بكتْ مقبولة وكانت الدموع تنسرب من عينيها، وهي تفرك يديّ، ثم ألقتْ إليّ بنظرة تائهة كطفل أضاع أمه قبل أن تقول: لمن سأخرج يا حياة، أخبريني؟ هنا وجدتُ عائلتي. انكمشتْ كلماتها فجأة كجسر انكمش تحت وطأة السنين ضممتُها إليّ وربتُّ على ظهرها، فسكنتْ وهدأتْ نفسها.

ستخرج قريبًا، قال لي ذو الذقن الطويل، بعد أن أخبرني بأنها معتقلة إداريًّا، ولم يبقَ لها سوى بضعة أشهر بعد فترة التمديد الثانية.. أمّا أنا فسأموت هنا.في داخل غرفة تقتل كلّ إدراك، غرفة جدرانها صماء بكماء قادرة على دفن أي أمل بالخروج.... لم أخبر مقبولة باقتراب موعد خروجها بل تركتُ المهمة للظروف تخبرها فيما بعد.

كل شيء هنا يشيخ باكرًا وبطريقة استفزازية للوقت الذي يضطرُّ بأن يكسر العقارب في ساعاته الدائرية، المربعة، المثلثة، ليتمكن من اللحاق بزمن هذا المكان. إيقاع الحياة هنا يختلف، هنا الرتابة المتكررة للون الأبيض، رتابة النوم والاستيقاظ، يكسرها فقط تبدّل الفصول. فتنتقل من حالة الغرق في عرقك صيفًا إلى تجمد عروقك في الشتاء. معتقل قذر، لم نحصل به على أقل ما يحتاجه الآدمي. تتكوم اثنتا عشرة أسيرة في غرفة مساحتها لا تتجاوز الخمسةَ والثلاثين مترًا مربعًا. حمام قذر مع مغسلة واحدة يقبع في نهايتها غالبًا ما يُقطَع عنه الماء عن قصد منهم لإذلال إنسانيتنا. نعاني مخاضا في أوضاعنا. صحتنا تقفز للخلف إلى ما تحت الصفر. نعيش حياة متجمدة، أمل متجمد إلا الألم فهو دائم الغليان. همستْ لنا: تعرفْن بأنهم أعدوا لنا هذه البوتقة بدلاً من أعواد المشانق فقط حتى يتجنبوا إثارة الرأي العام. تنهدتْ، ثم تابعت.. انتهجوا المذابح جزءًا من سياستهم لإرهابنا. اعتبرونا سجناء أمنيين تحت مسمى إرهابي أو مخرِّب وأسقطوا عنا اسم سجين سياسي لكي نفقد حقوقنا. جعلوا من معتقلاتهم مسارح يمارسون على خشبتها كافة أنواع التعذيب الجسدي والنفسي، وضعونا في توابيت حقيقة ونحن أحياء حتى باتت العتمة هي خاطرنا ولا شيء غيرها، تحيط بأرواحنا فتذبلها. انتهجوا معنا معادلة قذرة

لتصفية ثورتنا، فمن الضعف الجسماني إلى الإذلال النفسي، إلى غياب العناية الصحية. إنهم يعملون على إفراغنا من محتوانا الإنساني...

أنهتْ دلال خطبتها القصيرة ثم قالت: سندخل إضرابًا حتى لا تكون نتائج ثورتنا كالماس المخبوء في الأرض، سنعفي منه من تشكو أمراضًا مزمنة... ولا أريد لهذا الإضراب بأنْ يكون كفقاعة صابون تجذب الأنظار بداية ثم لا تلبث أن تنفجر في الهواء وتتلاشى وكأن شيئا لم يكن.. لن نتسول المعجزات لأن عصرها قد انتهى. لن نرتع في أحلامنا بل لا بدّ بأن نواجه الواقع بكل ما أوتينا من قوة حتى لو كان على حساب صحتنا، لن نسمح لهم بتمزيقنا برياح أيديولوجياتهم وعنصريتهم الهمجية.

دخل المعتقل بعد اجتماعات سرية مع بقية الغرف إضرابًا حمل بين طياته، الهزيمة والانتصار، الموت والحياة، المرض والشفاء، الضعف والقوة، تجربة تعرّي الروح الثائرة لدى الأسيرات، الانتماء للأرض والمسير نحو التحرير أو الشهادة، طريق شاق على أجساد ذاقت الويلات منذ بداية الاعتقال وحتى هذه اللحظة، لكنها الإرادة التي تمدها فلسطين لنا بالمضي نحو تحصيل العيش بكرامة أو الموت بكرامة...

العالم ليس على مقاسنا

إنه فضفاض جدا

(16)

تسألني.. هل تستطيعين عدَّ الأمواج؟ فأجيبك بسؤال.. أية أمواج تقصد؟ هل هي أمواج قلبي ام أمواج البحر؟؟ نضحك بصوت عالٍ، فأسألك.. ماذا يريد البحر منّا يا ناجي؟ ولِمَ يلقي على نفسه هذه الهالة الرائعة التي لا تملُّ من شدّ انتباهنا إليها كلما جلسنا على هذا المقعد؟ هل يريد بهذا أن يرمي بجماله كطعم لنا؟ هل يطلب جسدينا؟ هل يشتهينا كما نشتهيه؟ فجأة تفوح رائحة رذاذ مياهه عندما تنتحر إحدى الموجات على صخور الشاطِئ وتتناثر أشلاؤُها في الجو.. يا لسحرك أيتها المدينة! كل شبر من جسدك فاتن ومحلّ إغراء، ليتك ما أظهرت مفاتنك لهم...

ليلتها تنهدتَ طويلاً وأنت تدخن سيجارتك الشهوانية وقلت: إنّهم يدافعون عن أرض فلسطين باعتبارها أرضًا لأجدادهم، ونحن من استولى عليها. انظري يا حياة إلى ما يعرف بـ هدسة وهي منظمة المرأة الصهيونية، أكبر منظمة يهودية تعنى بجمع الأموال لليهود، ارتبطت بشخصية صهيونية نسوية (هنرييتا زولد) المولودة عام 1860 في الولايات المتحدة حيث قدمت برفقة أمها إلى فلسطين بهدف خدمة المجتمع اليهودي، حينها جذبتها الحركة الصهيونية فقامت بتأسيس هذه المنظمة وتجاوزتها بعد ذلك إلى إنشاء مستشفى هدسة في القدس. ألا يجب علينا أن نستأسد في الدفاع عن فلسطين واستردادها ونحن أصحابُها التاريخيّون؟

أودّ أنْ أخبرك يا ناجي بأن إضرابنا يدخل الأسبوع الثاني وكلنا إرادة على البقاء على العهد، عهد الثورة، عهد الأرض، عهد التضحية بأرواحنا من أجل بلادنا حتى النصر أو الشهادة.

رفضتْ دلال الانضمام إلى المجموعة التي تمّ إعفاؤها من المشاركة في الإضراب. عانت الكثير حتى غدتْ كزهرة ذابلة اعتصرت الشمس رحيقها. ما نحن يا حياة سوى تلك الطرق المعبدة للأجيال القادمة، فلنحسن تعبيدها، كانت تقول كلما رجوتها أن تتوقف. أخافتني تلك الهالة الرمادية التي أحاطتْ بها منذ بدأنا الإضراب، كأنما تجمعتْ حولها لتخبرني بأن نهايتها قريبة، بدت لي كأنها الحداد القادم الذي سيخيم على سماء هذه الغرفة فيزيدها قتامة.

أزَّ باب الغرفة ذات ليلة، اقتحم جنود يرافقُهم مومسات يهوديات. تلقينا الضربات على أجسادنا حتى تكسرت عظامنا، حاولوا بذلك فكّ الإضراب، لكن محاولاتهم جميعها باءت بالفشل.. لأنّ فلسطين ليست مجرد أرض، وما يربطنا بها ليس مجرد أنها تراب نعيش عليه. بل إنّ ما يربطنا بها علاقة حبّ مطلقة ولا تخضع لقانون النسبية. فليسقط قانون النسبية في حبك فلسطين. فلسطين أم وحبيبة، ونحن مرتبطون معها بحبل سرّيّ لا ينقطع، لرحم ولّاد لن يصل يومًا لمرحلة اليأس. ونحن لن نساوم عليها أبدًا حتى لو كسروا عظامنا كما فعلوا الليلة. دلال لم تكن مجرد أسيرة، من يمتلك تلك الإرادة والثبات برغم المرض هو قائد يجب على التاريخ أن يقدم له التحية على جميع صفحاته...

لم أستطع النوم تلك الليلة كما هي عادتي منذ دخلتُ هذا المكان، وربما مكتوب في قدري بأن أكون أول من يرى المصيبة أمام عينيه.. لِمَ يجتمع

الحزن عادة في أحب الفصول إليّ؟ لِمَ هذا التوقيت يا ترى؟ لا بدَّ أن ما يحصل هو لحكمة إلهية..

ضجيج في الخارج، أمطار، صوت احتضار الفجر، أجساد هزيلة تئن تحت وطأة الجوع، أنفاس تتردّد، كأنما قطار ينفث بضيق دفعات البخار، التفتُّ نحو مصدر تلك الأنفاس، إنها دلال. اقتربت منها، خاطبتها: دلال، دلال، لم تستجب لنداءاتي. أسرعتُ نحو الباب طرقتُه بقوة، صرخت.. طبيب نريد طبيبًا، أرجوكم بسرعة، إنها تموت، أنقذوها.. تكوّمتْ الأسيرات حولها. ارتعشت الوجوه، انتفضت الأجساد، أصابتها حالة يأس عميق، بدت مقبولة مهشّمة حتى النخاع. كانت أنفاس دلال بمثابة دعوة غادرة إلى الموت المنتظر.

أقبل أحد الحراس نحونا يكيل لنا الشتائم، رمقني بخبث وتراخ.. ماذا هناك يا حيوانات؟؟

أحضر الطبيب، أرجوك إحدى السجينات غائبة عن الوعي... تمتم بشتائم مقذعة ثم صفق الطاقة ومضى..

لا، لن تخونك أنفاسك، لن تجرؤ على ذلك. إنك أقوى من هذا العالم العاري، هيّا وقاومي، أرجوك قاومي.. كانت محاولة يائسة مني، كمن قرّر أن ينقل ماء البحر بملعقة، انهار جسدي وتكومتُ على نفسي في زاوية الغرفة أحدقُ بها وأنا مهزومة غير قادرة على فعل شيء داخل غرفة مغلقة.

نظر إليها نظرة الازدراء المالوتسية، خاطبها بداخله قبل أن يمد يده إليها ليفحصها، كيف يمكنني القضاء عليك دون علم أحد؟ قال في نفسه. قلّب جسدها بيديه الغادرتين... حبة مسكن، أعيدوها إلى غرفتها.

استرخى الجسد بعد صراع مع نوبة السكري ويبدو بأن الروح قد تخففتْ الآن من أعباء ألقى بها الزمن عليها طويلاً، وقد آن الأوان لتخرج من ذلك الهيكل الطيني وتنفض هموم قشرته القاسية. إنها الراحة الأبدية...

تراجع الضجيج، حلّ مكانه الصمت، يأس مثير للعدوى، ألمٌ يتخمر داخل الأنفس لحظة بعد لحظة، سكنت نبضاتُ الجسد أمام هيبة الموت. ما أكرمكِ أيتها الحياة وأنت تضيفين في كل مرة خيبة جديدة إلى رصيدي..

وفقَد ذلك الشتاء ملامحه في فوضى الرحيل..... نجح إضرابنا وحصلنا على بعض حقوقنا بعد أن أسمع صوته للعالم... لكن بعد ماذا؟

الأيام تترنح كسكير

(17)

أصبح نهار المعتقل امتدادًا لليله، إيقاعان متشابهان لنغمة واحدة هي غياب الشمس وامتداد العتمة والأنفاس المضطربة لجدران الغرفة، ورجفة الوقت وارتعاش عقارب الساعة.. غياب دلال، مقبولة، أشعرني بالخواء النفسي، فماذا أفعل بكل هذا الفراغ الذي يحتويني؟؟ صداع يكاد يقتلني، يدق رأسي في نوبات متتالية. أصبحتُ كأعمى لم يكفّ عن مساءَلة العتمة عن شيء اعتاد لمسه بيديه. فأين أنت يا ناجي، ألا ترى القيد في يديّ، اقترب مني، اكسره، حررني لأعانق الدنيا قبل الذبول، لأضع آخر وردة في مزهريتنا على طاولة الجلوس، هيّا حررني لأقبل آخر أيامي في الميناء، أيامي القليلة مع حبيبنا الصغير، صحيح، قد نسيت أنْ أخبرك بأن تحضر معطفك في المرة القادمة، فأنا بأمس الحاجة لاستنشاق رائحة صغيرنا، هل نسيت؟ إنّها رائحته الأولى، رائحتنا جميعًا. أحبكما، أتألم لفقدكما، للحبّ ألم لكنه لذيذ، يحتل كل خلية في جسد المحب، أحن إليكما وتعلم بأننا بأيدي الحنين نكون كالدمى بأيدي الأطفال، وأنتما لم تتركا لي أي سلاح لمقارعة جيوشه المليون... الصداع لا زال يدق رأسي، حبة مسكن لا تكفيني، إنني بحاحة لحبة أفيون واحدة من حبكما، فقط حبة واحدة لتزيل كل هذا الألم..

بدأتْ ريح تشرين تطلق عويلها في الخارج، تنتزع بوحشية جثث الأوراق وتطوّح بها على أرضية الساحة، كان يصلني أنينها حين تتهشم أضلاعها الرقيقة تحت حذاء أحدهم فأبكي من أجلها. إنه تشرين آخر يأتي وأنا وحدي، أدفن نظراتي في تلك الطاقات العتيقة. ينحصر العالم بمساحاتها

الصغيرة، تنفتح أمامي شاشة الماضي.. حكايات مقبولة، توجيهات دلال، رعشة أمل، أضحك قليلاً ثم أبكي. أضحتْ الغرفة ملتقى لأشباح تائهة تجري في جميع الاتجاهات، تصرخ، تطرق الباب اللعين، تقهقه، تموت، أجري خلفها، أطرق الباب بكلتا يدي المتعبتين، أقهقه ثم أموت معها. فما أسعدني بأشباح الحضور. يأتي النهار بكامل ضوئِه فأصاب برهاب الوحدة النهارية لشعوري بأن كل شيء ينسحبُ مني بقدومها، لا أعلم كم تبقى لي من أيام عمري، فها هي دقات الموت منذ مدة وهي تطرق أبواب ونوافذ حياتي، منذ زارتني أول نوبات للصداع، قال الطبيب إنه السرطان.. ذهبتْ رؤيتكَ حسرة في قلبي يا صغيري، أتعلم! لقد أحضر لي أبوك ذات زيارة ذاك المعطف الذي أعشق. استنشقته طويلاً، خزنت رائحتك في ذاكرتي كما تُخزن الأشياء الجميلة. أعلم بأن عينيك الآن تزدادان اتساعًا لتدركا كلّ ما يدور من حولك، وأن غيابي أفقدك كل ثقة بأمومتي. أنا لن ألومك يا صغيري لذلك تقصدت أن لا أتحدث لك عن شهورك القليلة التي عشناها سوية ليس لشيء إلا لأنني لم أرد أن أجرح قلبك بذكريات قد تراها أنت قصيرة لا تساوي شيئا، لكنها بالنسبة لي تساوي عمري.. عذرًا فإن لقلوبنا طقوس لا تُحكى أبدًا يا صغيري...

زارتني أمي في الحلم، دعتني إليها، كما فعل أبي، جدتي وجميع أمواتي حتى جدة مقبولة زارتني إلا أنت يا ناجي. أدركت عندها بأن كل لذة جسمية لها نهاية وبعد كل تلك السنوات حتى لو أقدمنا على اجترار تلك الذرة المشوية، فإننا لن نشعر بشيء كما من قبل، فالغياب كفيل بأنْ يفقدنا إياها، وحدها التي تثبُت هي تلك اللذة الروحية بطعمها، برائحتها، بكل تفصيل من تفاصيلها، ذلك أنّ اللذة الجسمية ملتصقة بقشرتنا الفانية، تنتهي بانتهائها، أمّا الروحية فإنها تسمو وتستمر حتى في ذلك العالم المعروف

بالبرزخ. من وقتها أدركتُ بأني مع الأموات ولن تسعفني الحياة كثيرًا لأكمل في مملكة الأحياء. فكل ليلة أراه يتربص بي يرصدني بعينيه المتقدتين يؤرقني، يخلع عني معطف الراحة، يتأهّب لينقض بكل جيوشه على جسدي المرهق، أرجوه أن يتركني، لكن هيهات.. فليس في مواعيد الموت امتيازات...

أخبرني الطبيب بأنّ إدارة السجون ستفرج عني، فضحكتُ من كل قلبي. عندما كنت أترقب الوقت كل يوم على أمل الخروج من هنا والارتماء في حضني ناجي وحنظلة، مرت تلك الأيام بل والسنون ولم يحصل شيء فأيقنت بأن الاعتماد على الوقت أمل هش، هش جدا لدرجة أنه قادر على كسر الإرادة في النهاية.

أمامي شهر واحد. تفكك شريط حياتي إلى تفاصيل صغيرة. تذكرتُ كل الأشياء التي كنت قد نسيتها، لا بدّ بأنّ شجرة البرتقال الآن قد أزهرتْ في حديقة بيتنا. قبل أيام أتم صغيري الثمانية أعوام. وأنت ستتم الثالثة والأربعين الشهر المقبل. أرأيتْ؟ لقد استرجعتُ الكثير من تواريخي المهمة. أودّ أن أطمئنك بأنهم كفّوا عن تعذيبي منذ أن عرفوا بماهية مرضي، ولا أعلم لِمَ كفوا؟ فقدتُ شهيتي للطعام، ترتفع درجة حرارتي باستمرار، نقص وزني للنصف، أنام ولم أعد أميز ليلي من نهاري. ماذا أخبرك أيضا؟ هل أخبرك بأني فقدتُ رغبتي باستنشاق ذلك الهواء الحرّ وأصبحت مرتبطة بهذا المقيد المُعتَقل الذي يشبهني، نعم فحتى الهواء يُعتقَلُ في أوطاننا بل ويُجلد وقد يختنق أحيانًا، لقد كففتُ عن اشتهاء هواء الأحرار هذه الأيام وأيقنتُ بأنه سيعجل بموتي لو استنشقته.

طلبتُ مقابلة ذي الذقن الطويل، فقط ليحقق لي تلك الأمنية الأخيرة التي طالما أرقتني.. في الحقيقة إنّه كان كريمًا معي ذلك اللقاء، فلم يبخل

عليَّ ذلك اللوطي ربما لأنني كنت في أيامي الأخيرة! أخبرني بأنّ وائل هو من دُسّ بين صفوفنا، هو من كان ينقل جميع تحركاتنا، أراد أن يتساوى مع الأشكيناز في امتيازاتهم (معادلة منطقية ومقنعة)، وائل و(ليفي) وجهان لعملة واحدة، يهوديا سفارديا، تسلل بين صفوفنا كان يشترك في بعض العمليات الصغيرة. لا بدّ لبعض الأسرار بأن تُفتضَحُ يومًا لكن بعد فوات الأوان. وشى بنا بخمسين دولارًا، يا لك من رخيص يا وائل أقصد يا ليفي، ذكرني بعميل وشى بأبناء جلدته وعندما سألوه، هل كان الثمن يستحق التضحية بنا وبقوميتك! أجابهم بأنه لو لم يشِ بهم لكانت الفاتورة التي سيدفعها باهظة الثمن! فما أكثر الجواسيس بين صفوفنا ويا ليتنا سَلِمنا من أولئك الذين يُقال عنهم عرب! أيّ عرب هؤلاء الذين يُقدِمون على بيع إخوانهم. فأيّ لوم سألقيه على ليفي. حشيتُ الملح في جرحي وصمتُّ.

القسم الثالث

(1)

الساعة الثانية والنصف صباحًا، المدينة لا تزال تمارس عهرها في الخارج، منفضة السجائر غصّت بأعقاب السجائر، وهي لا تزال تجلس أمامه من غير تعب أو ملل، تحدقُ به وهو يقلبُ بحذر تلك الأوراق الصفراء، إنّها خمسة عشر عامًا داخل صندوق أزرق. حافظ على هيكله لكنه لم يستطع المحافظة على ألوانه فبهتت. هادِئ من الخارج برغم كلّ ذلك الخفقان على جسد الأوراق العجوز في الداخل، بكاء، نواح، صرخات، موت، فصول تولد وأخرى تموت.

الساعة الرابعة صباحًا، دخان يتلوّى فوق الأوراق يشارك في مشاهدة الأحداث، موجة من البرد تجتاح جسده، دموع ساخنة تسافر من عينيه يخالها تسقط على تراب يافا، تختلط بعبق البرتقال، برائحة القهوة، بحجارة الجدران القديمة، وهي لا تزال تجلس أمامه ولا تحرك ساكنًا، لم تقدم على ضمّه أو مسح دموعه، إنها عاهرة مثل المدينة، مثل شوارعها، مثل الوحل الذي انتشلها منه ذات ليلة.

كم هو مؤلم أن يكون لك أم ثم لا تكون مرتبطًا بها روحيًّا، كنت ألوذ بالفرار يوم زيارتها إلى بيت عمتي برغم جميع الدروس التي كان أبي يلقيها على مسامعي عنها، لا زالت صرخاتي تطنّ في أذني.. لا أريد أمًّا من ورق، حينما كان يعرض صورها عليّ. أحببت معلمتي حتى غدوت مثل (دافيد كوبرفيلد) عندما عشق معلمته (شيبرد)... يبدو بأنها تولّت مهمة القيام بمهمة الأم من غير قصد. عوّضتْ ذلك النقص الذي بداخلي حتى

استغنيتُ عن عاطفة أمي التي لا أذكرها والآن أكتشف وبعد فوات الأوان بأن عاطفة الأم ثابتة لا تتغير مهما باعدت المسافات بينها وبين أولادها. أما عن ذلك اليوم الذي يسمونه بيوم الأم، فقد كان من أصعب أيام السنة، فعندما كان بقية الأولاد يحضرون إلى المدرسة بصحبة أمهاتهم من أجل الاحتفال، كنت أختبِئ خلف المدرسة أبكي وحدتي، فقدي لها، تختلط دموعي مع إفرازات أنفي فيطل ظلّها عليّ، أفرح وأحزن في آن واحد، تغمرني بحنانها من غير أن يكون في نيتها أن تأخذ مكان أمي فتسد فراغ عدم وجودها إلى جانبي، تقول وهي تنظف وجهي بمنديلها المعطر (الأمومة لا تعوض لمَ تمتنع عن زيارة أمك يا حبيبي؟؟) أشيح بوجهي إلى الجهة الأخرى، أتعلق بتلك الكلمة، حبيبي، هل تحبني بالفعل، أنسى أمي وسط ضجيج قلبي الذي كان ينبض لها وحدها، أعيدها في نفسي، هل تحبني فعلاً؟؟ تصمتُ وتكملُ تسريح شعري بفرشاتها الخاصة. تمسك يدي، تتداخل أصابعنا، أرتعش قليلا ولا أدري لِمَ؟ أهو برد صباحات آذار أم هو حبها الذي استملكني؟ كنت أتمنى أن أكبر بسرعة حتى نتزوج. نعم وصل بي حبها إلى هذا الحدّ. أشد أصابعي على أصابعها وأرافقها حيث يقام الاحتفال. أذكر بأنها أهدتني ذات يوم دمية قماشية، كانت بنصف طولي، تنام في سريري، أسرح لها شعرها، عشقتها، تمسكت بها، أذهب إلى غرفتي باكرا جدا متحجّجًا بالنوم، أعقد معها حوارات لساعات طويلة بدلاً من تلك المنولوجات التي تؤرق نومي كل ليلة، ظل حب الدمى يرافقني حتى أصبحتُ رجلا، فكان أول شيء قمت به عندما وصلتُ إلى هذه المدينة أن قمتُ بالتسجيل في دورة تُعقَد في مسرح الدمى....

عائلتي تعتبر الثورة إرثًا يجب أن ينتقل من الآباء إلى الأبناء، كان يريدني صورة طبق الأصل عنه، قلت له بأني أريد أن أعيش حياة طبيعية، أتزوج،

أنجب أطفالاً، اقضي معظم وقتي معهم، أشعرهم بأبوتي، لا أريد لهم أن يتسولوا شفقة الآخرين كما فعلت أنا. أمّا الآن وبعد أن نبشتُ هذا الصندوق وكشفتُ عورته، فقد تغيرتْ نظرتي ولن أخيِّب ظنّ أبي. كما أنني أحببت أمي، اشتقت إليها، انتحبت لفقدها وكأنها تموت الآن ولم تمضِ تلك الأعوام على موتها. تمنيت لو يرجع الزمن إلى الوراء، لكن الزمن لئيم ولن يرجع حتى لو انتحرنا على عتباته...

(2)

احمرّ وجهه وارتفعتْ حدة صوته.. أية قيادات تلك التي هادنتْ لقاء المال والجاه؟ تلك التي اعترفتْ بحق من ليس لهم حقّ به؟ بماذا تختلفُ عن أولئك الذين تاجروا بنا فكنا بضاعة رخيصة بين أيديهم؟ إنه لا شيء فكلاهما يعزف على نفس الوتر، وتر المهادنة، الخيانة، المؤامرة.. لا أعترف بأيّ منها، إنني أنتمي للثورة، وما أنا سوى مقاوم صغير في صفوفها قريبًا. الثورة الحقيقية يا صديقي ليست ثوبًا نلبسه اليوم وننزعه في اليوم التالي لأن أحدهم عرض علينا ثمنه!! كما أنني لن أنتمي لأية منظمة مطبوعة بشخصية من أسّسها. سكتَ هنية ثم تابع... بل أفضل أن يكون انتمائي إلى ثورة نقية طبعتْ ثوارها بشخصيتها.. أتعلم يا صديقي، تمشّى إلى أن وصل إلى النافذة، أطلّ من خلالها بحذر ثم عاد إلى مكانه، وكرّر جملته.. حدّق به وكرر عبارته أتعلم يا صديقي! بأن بعض المنظمات سيطر عليها حبّ المال والسلطة، حكّ أنفه.. وأظنّ بأنها نسيتْ فلسطين وألقت بقضيتها في جيب بنطالها المهمل.

ردّ عليه بنبرة عالية، نزقة.

لكنها قياداتنا وبها سنصل إلى مرادنا.. إنك بهذا تتناسى الرقم الأصعب في حياتنا 181 قرار الأمم المتحدة المعروف بقرار تقسيم فلسطين 1947 ومنح اليهود 56 بالمئة من فلسطين، ماذا حصل بعد ذلك؟ قال وهو يتجرع كوب القهوة ويذرع صالة الجلوس رائحًا غاديًا، حصل أن كنا لاجئين، نازحين، وداخل فلسطين تحولنا إلى مواطنين من أقلية قومية من الدرجة

الثالثة، نرزح تحت حكم الكيان الصهيوني.... تنهد ثم تابع.. إن لم نتحد نحن فلن يقف معنا العالم لا في الخارج ولا في الداخل، جرّبنا هذا عندما تفجّر الأمل في أنفس أهلنا عندما تمت الوحدة بين سوريا ومصر عام 1958، اتضح فيما بعد بأنه أمل مهيض، ثم انتعش فينا مجدَّدًا عندما وصلتنا ثورة 14 تموز في العراق في مواجهة الاستعمار والرجعية العربية، وكالعادة انهارت جميع الآمال... وانفرطت الوحدة عام.196.

انتهى الحوار ولم يقنع أحدهما الآخر، راقب حنظلة الشارع وعندما لاحظ أنّ الشوارع أصبحت في عداد الأموات أعطاه إشارة بالتحرك.

(3)

قلّب صفحات مجلة نيويورك تايمز، وفجأة لم يعد يستوعب ما قرأ، فبدا كأنه يفسّر كتابة مسمارية من العصر الكنعاني (عُثر على جثة شاب يحمل جواز سفر جزائري، تطفو على مياه النهر الشرقي).. صعق هذا الخبر حنظلة وبكى دموعًا على أحمد الذي لا زال كوب قهوته هناك يعبق برائحة أنفاسه، البارحة كان يذرع هذه الصالة جيئة وذهابًا، يلتمع الأمل في عينيه للمستقبل واليوم غدا جثة تتلاعب بها مياه نهر لا حول له ولا قوة، أي مصير هذا؟

وصله فيما بعد بأن الموساد الصهيوني هو من أقدم على اغتيال أحمد. فالإرهاب وارتكاب مجازر القتل هو معيار مزدوج لديهم... الصهيونية تتحكم بكل شيء حتى الإعلام الأمريكي. فجريدة الواشنطون بوست والتي أسسها شخص غير يهودي، تمكن اليهود من إفلاسها، من ثم اشترتها عائلة ماير اليهودية حتى غدتْ من أضخم الجرائد في أمريكا. أمّا سبب إفلاس تلك الجريدة فبسيط جدا فهي لم تعمل لمصلحتهم...

ضربات متوترة ومتتالية تنهالُ على جرس الشقة. انقبض لها قلبه. حدّق من خلال عدسة الباب، فانسل الخوف من قلبه.. إنه مارتن. قال، فتح الباب بسرعة البرق، ولم يكدْ يضع رجله في الشقة حتى همس في أذنه.. أبعدْ كومة الرمل اللئيمة من هنا.

أرأد الاحتجاج على مطلبه، لكن مارتن سارع في وضع كفّ يده على فمه.. الوضع خطير أيها الوغد. قالها بعصبية وبصوت خفيض أكثر من اللازم. أدركَ عندها بأن هنالك خطرًا ما.

اقتربَ منها، غازلها، حملها بين ذراعيه وتوجه بها نحو غرفة النوم، فتح باب الخزانة، وضعها برفق في مكانها المعتاد، أغلق بابها وغادر حيث الأسود ينتظره...

ألم أقل لك منذ زمن بأني لم أرتح لهذه البكماء الباردة الحقيرة؟؟

هزه من كتفيه، إنك تخيفني ما الذي حدث أيها الأسود، قل ولا تَزِد من قلقي، اليوم قُتِل أحمد، أتذكره؟ حدثتك عنه مرارا، اغتالته الموساد، وها أنت تطلب مني أن أُسرع في إخفائها، تكلّم أية مصيبة تحمل لي؟؟؟

قُتل السمين، هذا الصباح وجدوه في غرفته مصابا بعيار ناري.

وجهك نحس أيها الأسود في السابق نقلتَ لي نبأ مقتل الشقراء، واليوم تقول بأنهم وجدوا السمين مقتولاً! حسن فما علاقتي أنا بالموضوع؟ ليذهب ذلك الوغد إلى الجحيم.

رويدك يا ولد إن الموضوع أخطر بكثير مما تظن. فقد سمعت بأنه قد يكون هو من أطلق على نفسه ذلك العيار الناري وربما أحدهم أقدم على فعل ذلك! ضع تحت العبارة الأخيرة ألف خط أحمر. ولا تستهن أبدا بما أقول لأنك ربما تكون من ضمن قائمة المتهمين. اصفرّ وجه حنظلة، تربّط لسانه واكتفى بالاستماع لصديقه. تابع مارتن.. المهم أيها الولد اللامبالي، فتاتك الحقيرة التي حذرتك منها مرارا وكنتَ توبخني لأجلها، إحدى عينيها ليست سوى كاميرة مراقبة، أضف عليها جهازا للتسجيل.. وهذا يعني بأنهم قد تلصصوا على جميع ما يخصك، وأظن بأنني رأيت رجلاً غريبًا لم ألمحه سابقًا في مدخل العمارة، أظنّ بأنهم يخططون لقتلك.

اضطرب حنظلة، أبي يا صديقي إنه ينتظرني الآن ولا أريده أن يخسرني..

إذن ستخرج الآن ولوحدك.

انتظر، انتظر، جواز سفري، هويتي، شهادتي الجامعية، ، ووووو...

وماذا أيها الأحمق؟ كل هذا لن ينفعك، ستخرج قبلي من سلم الطوارِئ وأنا سألحق بك بعد أن أنهي عملاً هنا، ثم نلتقي عند الجادة الثالثة.. هيا أسرع..

خرج حنظلة يلتقط أنفاسه هاويا على السلم للأسفل كأنه شلال هادر، في هذه الأثناء كانت ألسنة النار تلتهم أجزاء الشقة بما فيها كومة الرمل تلك التي اعتبرها حنظلة ذات ليلة من هدايا القدر.

خمس سنوات، ناجي، حياة، الصندوق الأزرق وما يحويه من ضجيج، أوشفيتز، دلال، مقبولة، الصحفية، يافا، البواخر والبحر، الميناء، المعتقل، ذو الذقن الطويل، وووووو، كله احترق في أقل من نصف ساعة.

تدحرجتْ الكرة البرتقالية سريعا ذلك اليوم فتركتْ خلفها ليلاً باردًا.

تمايلا كشبحين في أزقة الجادات الباردة، المعتمة، آملَينِ في وصول سريع إلى هارلم.. سأله مارتن.. هل تعرف يا ولد ما الذي حدث في مثل هذا اليوم في القدس؟ حاول حنظلة أن يحصر أفكاره، لكن الأحداث الأخيرة حالت بينه وبين أن يتذكر شيئًا. عكس مارتن مشيته وسار أمامه وجها لوجه، أيها الولد الذي فقد ذاكرته ألا تذكر تفجير فندق الملك داوود في القدس عام 1946 من قبل عصابة الارغون اعتراضا على سياسة الحكومة البريطانية؟ أتعلم بأنه وبعد الحادثة بأسبوع نشرت مجموعة تطلق على نفسها اسم العصبة الأميركية (وهي واجهة لمنظمة الارغون) من أجل تحرير فلسطين بأنها هي التي دعتْ الرئيس ترومان لإنقاذ يهود العالم؟.. كان حنظلة يستمع إلى مارتن وقد بدتْ أمارات الدهشة واضحة على ملامحه.. أكمل،

أكمل إنك تدهشني يا رجل.. تابع مارتن بعد أن أدى رقصته من غير موسيقى الجاز ثم دار على نفسه.. في مثل هذا اليوم من شهر كانون الأول لعام 1946 أقامت تلك العصبة فرعًا لها في باريس في محاولة لكسب التعاطف الفرنسي مثلما فعلوا في أمريكا عن طريق المسرحيات وغيرها حتى إنّهم قاموا بتقديم السجائر وأشياء أخرى لمجموعة اسمها الريف غوش، وهي جماعة من المفكرين والكتاب الفرنسيين البوهيميين الذين عادة ما يجتمعون عند ضفة نهر السين الغربية، هدفهم بذلك كسب دعم (سيمون وبول سارتر) ومن خلالهما استمدّتْ العصبة دعم العديد من الكتاب والفلاسفة. هل نرقص لسيمون والمدعو بول سارتر؟ ههه حتى الفلاسفة سقطوا في أحضان اليهود. هيّا لنرقص!!

ساد بعد ذلك صمت بينهما لوقت ليس بالقليل، زاد أثناءه لهاثهما، قهقه.. قلت لي بأنك تحبها هههههههه، هذه تختلف عن نساء المدينة! فهي لا تخون! ها قد خانتك أيها الأحمق، نقلتْ تفاصيل حياتك بالكامل إليهم بعينها الكريهة، كيف لم تشعر بها؟ أتعلم بأنهم ما قاموا بتركك حيًّا إلى هذه اللحظة إلا لأنهم أرادوا أن يستفيدوا منك إلى آخر نفس قبل أن يقوموا بتصفيتك. عليك أن تشكر حظّك الذي يبدو بأنك قد تصالحت معه مؤخَّرا، قهقه، فعشيقة قريبي تعمل معهم، وهي من نقلتْ بالمصادفة كل ما حدث، وها نحن ننتظر تقريرهم بشأن موت السمين. توقف حنظلة عن المشي واتكأ على جدار أحد البيوت، أحنى جذعه للأمام، سعل كثيرا، شعر بأن معدته تقف عند حلقه. بادره الأسود ضاحكًا.. كم مرة قلت لك لا تفرط في الطعام! التفتَ إليه وقد جلسا قليلا لأخذ هدنة مع التعب.. أغلق فمك أيها الأسود، هات سيجارة فقد تركتُ كل شيء هناك حيث ذهب مع الريح، أقصد مع النار.

لم يكن مارتن ليَمل من ملاحقة صديقه وإلقاء اللوم عليه.. نقاط سوداء كثيرة سُجّلت في ملفك عندهم، أتذكر؟؟ ألم أحذرك سابقًا، الستة ملايين، لقاءاتك مع الجزائري، ونقاط كثيرة يا ولد! بالإضافة أنهم كأسماك القرش، تهاجم كل ما لونه أبيض، فنظرها ضعيف ولا تستيطع رؤية سوى الأبيض أو اللامـــع، أنت بالنسبـــة إليهم كنت اللون الأبيض، أنت بكل بساطة فلسطيني، درستَ الهندسة النووية، هل تعي معنى ذلك؟ معنى ذلك أنك عندما تعود ستهاجمهم بتلك الهندسة، لو كنتَ مكانهم هل عساك تتركهم أم أنك كنت ستُقدم على تصفيتهم؟

دخلا هارلم بعد أن تقطعتْ أنفاسهما من السير على الأقدام، وما أن رآها حتى شعر بأنها عالم مختلف عما تركه هناك عند النهر الشرقي حيث الحداثة والرقي، شعر بتلك الفجوة المدنية الهائلة بينها وبين منهاتن. صرعات الأغاني الراقصة تنطلق من سياراتهم وموتسيكلاتهم، ضجيج صارخ، كانت مثل خلية نحل، إنها عالم آخر.

صعدا عمارة قديمة، سلالمها هرمة، أطفال يتراكضون عليها صعودًا ونزولاً، فتيات، شباب، صخب، ضوضاء، حياة مختلفة.. وصلا الطابق السادس، عدة شقق متقابلة، أبوابها مفتوحة، دلفا أحدها، مباشرة كانا في غرفة تحتل إحدى واجهاتها مكتبة ضخمة تحوي مئات الكتب.

كانت لأبي.. قال وهو يتفحص كتابًا ضخمًا أخرجه من أحد الأرفف، قلّب صفحـــاته.. إنّه كتاب يُعنى بالشرق الأوسط، لقد اهتم كثيرًا بقضايـــاكم، وكان مؤمنًا بقضية فلسطين. من أشد المناهضين للصهيونية، لذلك اصطادوه وهو عائد إلى البيت بعد أن أنهى عمله في إحدى الصحف. أنهوا حياته بدم بارد ثم لاذوا بالهرب وسُجلت القضية باسم مجهول.

بهذه السهولة! قالها وخفض رأسه متحسّرًا. هزّه الخبر وأنساه مصيبته للحظة.

نعم يا ولد بهذه السهولة لذلك يجب أن تخافَ على نفسك، فإنهم شعب لا عهود له.

أتعلم أيها الأسود سأبوح لك بشيء لم أحدثك عنه في السابق. كنت تدهشني على الدوام بما تحمل في رأسك من ثقافة وعلم عن كلّ كبيرة وصغيرة في شؤون الشرق الأوسط وخصوصًا فلسطين، حتى إنّك جعلتني أهذي بك وبثقافتك في منامي... والآن أدركت كلّ شيء.

فجأة قطعت حوارهما موسيقى صاخبة انطلقت من إحدى الغرف وبدأ أحدهم بالغناء على أنغامها فبادر مارتن قبل أن يستفسر حنظلة عن الموضوع.. إنّه أخي الأصغر، هزّ كتفيه وجذعه وبدأ برقصة لم يكملها.. كلّنا هنا نتقن الرقص والغناء على أنغام الجاز، إنها تسير مع دمائِنا.. وقهقه كما هي عادته.

سحبه من يده وفتح غرفة تزاحمت الصور على جدرانها، مغنّين، راقصين، سود وبيض، صورة كبيرة لمارتن لوثر، سرير غطاؤه مرتب، أرضية نظيفة.

أتعلم! كان الأمر يبدو! كيف أشرح لك؟ حكّ شعره كما هي عادته عند الحديث عنهم: لقد كان الأمر أشبه بمؤامرة خبيثة.. فلقد كان الاضطهاد النازي لليهود في ألمانيا سندًا قويًّا للصهيونية، ومن المؤكد بأن فلسطين كانت محلّ إغراء لهم، حتى إنّ الهجرة غير المشروعة ظلّت في ازدياد عن طريق مكتب للجوازات المزورة في برلين؟ أتصدق هذا؟

ولا بدّ بأنك قد سمعت ما قالته العجوز الشمطاء جولدا مائير (عام 1878 عاد أوائل اليهود إلى صهيون ليؤسسوا قرية رائدة أسموها بتاح

كفاه) وتعلم بأن بتاح كفاه تعني بوابة الأمل، لقد عملوا كثيرا يا ولد حتى يحصلوا على فلسطين وبأنفاس طويلة جدا خذ مثلاً يهود مينتفيوري الذين تمكنوا من شراء أول قطعة أرض في فلسطين عام 1854 وأقاموا عليها ما يعرف بحي مينتفيوري في القدس. مرّر أصابعه من خلال شعره المجعد وتابع: انظر، تأتأ قليلاً: دائما ما كانوا يصورون اليهودي على أنه مضطهد، منبوذ في المجتمعات التي عاش فيها لكنهم في الواقع هم ملوك المال وعصب الاقتصاد، وبذلك فإنهم هم المسيطرون على مقدرات أي بلد يتواجدون فيه، لذلك لا تستغرب عندما يكونون هم المحركين للسياسة. لا تُصدِّق الكذبة التي يروجون لها، فهم لم يعانوا في أيّ بلد من أيّ اضطهاد إنما معاناتهم كانت ولا تزال في دولة اللبن والعسل، فقد انقسموا إلى شرقيين وغربيين.

كان حنظلة شاردًا هناك في شقته التي أكلت النيران فيها جميع ذكرياته. هزه الأســود من كتفيه، هيه مــا بك يا ولد؟ ركز معي ولنفكر كيف سنخرجك من هذا المأزق!

فجأة، دُق الباب.. هنالك من يريدك..

انظر يا ولد وأشار إلى باب صغير في آخر الغرفة.. تستطيع أن تأخذ حمامًا ساخنًا إلى أن أعود، فهناك من يطلبني.

ألقى بنفسه على أريكة قديمة فأصدرتْ صريرًا كأنما كانت تشتمه معترضة على ثقله، انسابت دموعه حتى بلّلت شعر لحيته الذي طال في الأيام الفائته ولم تسعفه الظروف لحلاقته. مرّت تلك اللحظات بطيئة لزجة كحلزون.

تسربتْ إلى أنفه رائحة البرتقال وتراب يافا عندما كان يبللها أول المطر، كلمات أبيه... احصل على الشهادة وعد بسرعة، ذلك الصندوق الأزرق

الذي ما أن نبش أوراقه حتى اكتشف بأنه نبش أوشفيتز، ولكن على أرض فلسطين... بينما كان يغرق بكل تلك الذكريات التي كان لها في نفسه ضجيجٌ مفزعٌ، دخل مارتن وقد اعتلتْ الصفرة صفحة وجهه.. فرك يديه، كأنما أراد التخلص من التوتر.

بادره، ماذا هناك يا صديقي؟ قالها بقلق.

للأسف إنك المتهم الأول بقتل السمين أيها البائس، بينما القاتل الحقيقي هو جاك حبيب الشقراء، قالها وهو يهزّ رأسه يمنة ويسرة، ألم أقل لك بأنك دسستَ ملعقتك في صحنهم.

ارتعش حنظلة، صرخ به.. اخرس وكفى لومًا لي، صرخ وصرخ بشكل هيستيري مزق الصور المعلقة على الحائط، ركل الأثاث بقدميه، بكى حتى انهار، وعندما أطفأ أتون قلبه جلس بهدوء على الأريكة مرة أخرى، أحنى جذعه للأمام وأرخى العنان لرأسه يتدلى بين كتفيه، كم من مرة رجوته بأن لا يدفع بي إلى هنا ولم يستمع إلي، صمتَ فجأة انتصب على قدميه وأخذ يذرع الغرفة الضيقة، تمتم بكلمات غير مفهومة، قلَّب كفيه، ازدادتْ ضربات قلبه، واحمرّ وجهه. أثناء ذلك لم يقوَ الأسود على مقاطعته أو حتى تهدئته لأنه لا يريد أن يكون كمن يبحث عن الهدوء داخل العاصفة.

توقف فجأة عن المشي، أدرك خطورة الأمر وأنَّ الموقف أصبح في حالة من الفوضى يصعب السيطرة عليها، شدّ من عزيمته، والتفت نحو مارتن.. هل ستساعدني؟؟

أتشكُّ في ذلك يا ولد؟ وحكّ فروة رأسه للمرة الألف وهو يجلس على الأريكة ويضع إحدى فخذيه على الأخرى. سأخبرك الآن بما حصل.. لقد تحققوا من موت السمين من خلال ذلك الموضع الذي انطلقت منه

الرصاصة، قال الطبيب بأنه من المستحيل أن يكون هو من أطلق النار على نفسه لسبب بسيط، أنه يسراوي، والرصاصة انطلقت من الجهة اليمنى للرأس من الخلف، ذلك أنَّ قطر الفتحة خلف الرأس أصغر مساحة من تلك التي في الأمام وتحديدًا في جبهته، لذلك كان لا بدّ من شخص غيره أقدم على إطلاق الرصاصة.. أرأيت حظك العثر؟

جلده الأسود بتلك الكلمات، تمنى أن ينقضّ على كلماته ويمزقها إربًا إربًا ثم يحشوها في دبره، فقد كانت كقنبلة موقوتة انفجرتْ في فمه، تطايرتْ شظاياها، بعثرتها صرخة احتجاج منه. لكن مارتن انتفض من فوق الأريكة وأمسك بكتفيه، إنَّ الأمر جدي وخطير، كلّ ساعة تمرّ تنذر بإحضار المزيد من الموت.

إنك عنيد ولا تريد الاعتراف بأخطائِك وهذا من الكبر، إنَّ مواجهتنا مع ذواتنا الخفية بأخطائِها والاعتراف بها، ثم إنكارها أمام الآخرين هو بمثابة تحايل على النظام الطبيعي لأخلاقنا كبشر. اعترف بأخطائِك يا ولد، فقد رُميتْ أحجار النرد وانتهى الأمر. فلا تعتمد على ديمقراطيتهم المزعومة فهي واجهة زجاجية أمام العالم فقط، يمارسون حقّ الفيتو فقط للدول الخمس التي خرجت منتصرة من الحرب العالمية الثانية، فأية ديمقراطية تلك التي يتبجحون بها؟؟ إياك أن تعوّل عليها فتكون كمن يتكِئ على ظلّ حائط.. والآن أريدك أنْ تتحلّى بالهدوء الكامل حتى لا تفسد على نفسك، ولا تكن كالطفل الذي يضحك وهو لا يعلم أنه يضحك لأنه سعيد! من الآن اعتبر نفسك سجين هذه الغرفة، دع الوقت يمر عليك دون أن تستعجل، تخيل بأنك في كازينوهات لاس فيغاس يمرّ الوقت عليهم دون أن يعلموا كم مرّ منه لينفقوا أموالاً أكثر مما هو متوقع،

فلا ساعات هناك، والفرق هنا بأني لن أطلب منك دولارًا واحدًا ثمن إقامتك، هههههه أترقص يا ولد؟

تكومت مرارة الموقف في حلقه، ابتلعها وهو كاره لها.

حاول مارتن أن يعزيه فقال.. أتعلم يا ولد بأن الأيام في كثير من الأحيان تروغنا إلى أن تملّ فنطوعها، دائما ما أفكر بتلك المتناقضات في حياتنا، فأقول في نفسي لو لم توجد لكانت الحياة مملة رتيبة، فلولا وجود القبح لما رأينا الجمال كما نراه الآن، لولا التعب ما أحببنا الراحة، صدقني لولا المتناقضات لما وُجد الأمل، فلا تخف سنخرج من هذه المشكلة، دعنا نعيد تركيب المشهد ونعمل بالقاعدة التي تقول.. كلّما شعرنا بالخطر يقترب منّا، زادت قوتنا في المحافظة على أنفسنا!

لعن الله ذلك المجهول الذي كان يعتمر تلك القبعة السوداء ويرتدي معطفًا مطريًّا وحذاء بكعب عال بعض الشيء، يمسك بيده مظلة والأخرى يحمل بها كيسا كبيرا يبدو بأنه لم يكن ثقيلا، مرّ من جانبي، لم أعره ليلتها أي انتباه، فقد كان الغضب يحفر في عقلي وكلمات ذلك السمين ترافقني، لم أكن بوعيي، لقد تآمروا علي ووضعوا تلك الدمية الحقيرة في طريقي، ليتها لم تهدني تلك الدمية القماشية وقتها، ليتني لم أتعلق بالدمى وعالمها.

(4)

بعد مرور عدة أشهر

رجل ممشوق القامة يعتمر قبعة يرتدي معطفًا من النوع الباهظ الثمن يضع نظارات سوداء على عينيه، يجرُّ خلفه حقيبة سفر صغيرة، يقف في طابور من أجل ختم الجوازات في مطار نيويورك، ختم الموظف جوازه وحدجه نظرة بها الكثير من الاحترام المبالغ به، مؤكد، فمن لا يحترم رجلاً تذكرته من الدرجة الأولى، وفوق ذلك يحمل الجواز الأمريكي.

استقبلته مضيفة شقراء ترتدي تنورة الميني جوب، سارت أمامه لترشده حيث سيجلس، مقعد مريح، شاشة تلفزيون أمامه، وجبات مميزة، حلوى، مشروبات كحولية، مرحاض خاص، كل شيء مختلف.

كان أحدهم يقاسمه المكان. عندما علم بأنه مواطن أميركي مسافر إلى تل أبيب للسياحة. أخذ يتحدث له عن كفاحهم في دولتهم الشابة، طبعا بعد أن أثنى على جهود أميركا معهم وشكر عدالتها وإيمانها بقضيتهم. شرح له الكثير، وكيف أنهم ينفقون مبالغ طائلة على بناء المستوطنات لأنهم يعتبرونها خط الدفاع الأول عن دولتهم. حدثه عن غزوهم للبنان عام 1982، وقد كان أحد الجنود المشاركين بها، وكيف استُغِلت تلك الفترة لإقامة المزيد من المستوطنات وزيادة عدد المستوطنين..

ابتسم الرجل ورفع قبعته، مسح حبات عرق غزيرة تسربلت من شعره، بالرغم من أنّ جوّ المقصورة كان باردًا.. لا شيء بالمجان يا صديقي،

أنا أشهد بأنكم تحملتم الكثير من أجل إقامة دولتكم، والحق أني أهنئكم على صبركم الطويل.

إسرائيل تشكركم يا صديقي ولن تنسى النواب في الكونغرس الأمريكي الذين صفقوا لأيّ تصويت كان من صالحها، والحقّ يقال بأن البنتاغون أيضًا لم يقصر معنا يومًا، فهو بقالتنا المخلصة الذي من خلاله نستطيع الحصول على أية صفقة أسلحة. وفي النهاية نحن أيضًا كنا ذوي فائدة لكم فأنتم تريدون السلام في الشرق الأوسط من أجل سيل النفط المتدفق نحوكم والذي يعد بالنسبة لكم إكسير الحياة، وأنت تعلم بأن نفط الشرق الأوسط يعطي رأس مال 500% من الربح!!

رفع قبعته للمرة الثانية، حكّ فروة رأسه التي كانت تخلو من الشعر ثم قال.. إذن فهي مصالح متبادلة، وضحك ضحكة مصطنعة فبادله الآخر نفس الضحكة.

بطاقة تعريف....

الاسم: حنظلة

اسم الأب: ناجي مكان الولادة: يافا

اسم الأم: حياة مكان الولادة: القدس

الدولة: فلسطين

المهنة: مهندس

العملية: تفجير ديمونة والاشتراك مع ثلاثمائة مجاهد في انتفاضة

النتيجة: زوال الكيان الصهيوني

.....

منذ أن وصل حنظلة مع صديقه المخلص الأسود مارتن إلى هارلم ذلك اليوم، كان قد اتبع نظامًا غذائيًّا، كانت نتيجته أن نقص وزنه إلى النصف، حلق شعر رأسه، أطلق العنان للحيته فطالت، تغير تغيرًا كاملاً حتى أن أباه لو شاهده فإنه لن يتعرف إليه. يوم سفره ارتدى طاقية وكان مارتن قد تدبر أمره بتزوير جواز سفر وهوية لشاب أمريكي ميت. دفع كلّ ما يملك واستدان عليه ليحجز لصديقه تذكره سفر لإبعاد أية شكوك نحوه من قبل شرطة المطار...

عاد حنظلة يا ناجي وقد كبر، يحمل في قلبه ثورة، فكّ قيده، أدار وجهه للعالم وحمل في يديه قنبلة. قال حين وقف على تراب يافا.. كم هو غريب ذلك الإحساس حينما تلامس قدماك الأرض التي ولدت عليها، تنفست

هواءها، بعد الضياع في أرض كرهتك منذ خطواتك الأولى عليها، منّت عليك بذرات هوائها، أخذت شبابك وفي النهاية اشتهت جسدك وأرادت الاحتفاظ بك داخل أحشائها.....؟؟؟؟؟؟؟

اكتملت في 11/ 10/ 2020

بديعة النعيمي